سعيد أبو نعسة

عائدٌ إلى ...

روايــة

الكتاب: **عائدٌ إلى... (رواية)**

المؤلـــف: **سعيد أبو نعسة**

لوحة اللاف: **للفنان المغربي عزيز بومهدي**

القيـاس: **١٤.٥ × ٢١.٥**

الطبعة الأولى: **٢٠٢٤**

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

الإهـداء

إلى فلسطين

المقدمة

عزيزي القارئ:

إنّ مجرد استعدادك لاقتناء رواية منشورة ورقيًا، في زمن الانترنت، يُعدُّ إنجازًا حقيقيًا، وقيمة مضافة للأدب.

ستحملها بفرحٍ واثق، تُلقي بها فوق المنضدة (الطرابيزة) التي قرب السرير، كما نفعل نحن المثقفين جميعًا، على أساس أنك ستقرأها، وأنت جالس في سريرك قبيل النوم.

تتناولها، تقرأ العنوان(عائد إلى ...) تتثاءب وأنت تقرر: «رواية مكرورة. هي تقليد لرواية غسان كنفاني، مع حذف كلمة (حيفا) من العنوان، واستبدالها بنقاط ثلاث، تشويقاً للقارئ فقط». ثم تغط في نوم عميق.

هنا أخطأتَ، الفرق بين الروايتين شاسعٌ واسع، وسع

ما بين الأرض والسماء ـ هذا على افتراض وجود ما نسمّيه سماء ـ ولا تشابُه بينهما إطلاقًا؛ اللهم إلا في الوزن الصرفي لاسم البطل في الروايتين (فَعِيل) . هناك اسمه سعيد ، وهنا رشيد .

ستأتي زوجتك المحافِظة على الإتيكيت، تحمل الكتاب، تدسّه في المكتبة كيفما اتّفَق، وهي تُبربر : «بَعد ناقصني كراكيب!».

هل ستتذكره حضرَتكَ عند الصباح ؟

لا أريد التسرّع وأجزم بلا ؛ ولكنك ستلتقي الكاتبَ صُدفة، ومن باب اللياقة ستشكره مرة ثانية على الهدية، واعدًا إياه بقراءتها بتأنٍّ ودقّة .

ماذا لو جمعَتك به صُدفة أخرى ؟!

سيكون موقفك مُحرِجًا .

إذًا، ستؤاخِذ نفسك، وتقول: «عيب، فلأتصفح الرواية، وأَلتقِط منها بعض العبارات، كدليل إثبات على قراءتي المتأنية» .

في بداية الرواية، ستقع عينك على جملة (أنت ستكشف السرَّ الأعظم يا رشيد) . ستتنهّد تنهيدة

الظفَر، وتؤكد لنفسك: «(معناتو) السر سينكشف في خاتمة الرواية، فإلى الفصل الأخير إذًا». لا تحاول، فالسرّ ضمن الرواية .

ثم تعال إلى هنا، هل عرفت سرّ ماذا؟

أنواع الأسرار على عدد شعر رأسك: الديني، السياسي، التاريخي، النفسي، الاجتماعي، الاقتصادي، العلمي ...

(ستتحرقص). تغلي ركوة قهوة على مزاجك، تحضر علبة السجائر، وتلفّ رِجْلا على رجل، متكئًا على أريكتك المفضلة، وتشرع في القراءة بدءًا من المقدمة .

هل أعِدك بأنك ستنهي قراءة الرواية، قبل أن تقوم من مقامك ؟

لن أعدك بشيء، سأتركك على راحتك . لن أحرق أحداث الرواية، ولكن سأبوح لك بجملة واحدة (إنها رواية رباعية الأبعاد) وربما أكثر . ستتضايق الآن، لأنني لم أشرح هذه الأبعاد . جرّب أن تقرأ وتكتشف. لن تخسر شيئًا، سوى ساعة من زمننا الهارب من الزمن، نحو الماضي التليد، والتراث الأصفر .

رواية بطلها (رشيد). هل كان اسمًا على مسمى؟ (عائد إلى ...)

إلى أين ؟ ومن أين ؟ ماذا حدث ؟ كيف، متى، ولماذا؟ أدوات استفهام مبهمة، ستجد إجاباتها الشافية ضمن السطور، وخَلفها .

وحتى لا تتفذلك وتتحذلق، شارعًا بالنقد قبل القراءة الكاملة ـ كما نفعل جميعًا ـ أؤكد لك أنني دلقت الرواية دلقا، كما خطرت ببالي، دون تخطيط، أو تجهيز مسبق، اللهم إلا للحبكة الأساس، وللقفز فوق الزمن البغيض، الذي يفصل الوطن عن الوطن . ستجد في الرواية أصواتًا متعددة، متنوّعة الضمائر؛ بعضها باللهجة المحكية، استدعاه منطق الحدث، ومعظمها فصيح .

تخيّل مثلا، أن تُغضِب والدك القروي، فيصرخ في وجهك: «تبًّا لك» . أو يقول لك موزّع الحليب الأميّ: «معذرةً، لا حليب نوزّعه اليوم» !

ستُفاجَأ بأنني عنيف أحيانًا، أضع كفي على فم الراوي المحايد، وأتدخّل ساردًا بضمير المتكلم .

العنف مبرر في هذا المقام؛ لن أسمح له بفضح أسرار بعض الدول، والأشخاص؛ ولن أتهاون في حقّي؛ أنا أفضل مَن يُعبّر عن مشاعره .

يا خوف قلبي مما سيحدث لك، بعد إنهاء القراءة !! قد تلقاني صدفة في إحدى الندوات، تفتح ذراعيك لعناقي: «شو هالرواية اللي بتعقّد؟!». تروح تختصر ما أعجبك فيها من حبكات وأحداث، من عبارات وعِبر، كوميديا بيضاء وسوداء، دموع فرح وترح، ألم وندم. وقد تشيح بوجهك عني، ممتعضًا من إزهاقي وقتَك الثمين، في قراءة رواية خنفشارية من منبعها إلى مصبّها .

ورغم كل الاحتمالات، فستُقنع نفسك أنك أضفت إلى مكتبتك كتابًا جديدًا؛ قد يصفرُّ ورقه، ويأكله العث والغبار؛ وقد يقرأه أحد أبنائك، أو أحفادك، فيعثر على حكمة، أو فكرة تغيّر مجرى حياته، كما غيّر عنوانُ كتابٍ مجرى حياتي .

ستغضب الآن: «لماذا لم أذكر لك عنوان ذلك الكتاب؟» .

مثلُنا جميعًا أنتَ ! يستهويك الخبز الجاهز، لا وقت

لديك للَّتِّ والعَجن .

شعارُك شعارُنا (مش فاضي أحُكّ رأسي، هات من الآخِر).

لن أُريحك . العنوان داخل الرواية . والحكاية كل الحكاية، أن حياة كلٍ منا رواية، والروايات تتشابه . اِقرأ، فلربما كنت أنت الراوي العالِم بكل شيء، أو أحد الشخوص الثانوية، مثاليًّا مثله، عصاميًّا، أنجزت للبشرية ما لم ينجزه أحد، كيف لا ؟ وقد أنجبتَ، وربّيت، وعلّمت، وزوّجت أبناءك، ثم سفّرتهم إلى حيث الحرية، والعدالة، والمساواة . اِقرأ، فلربما كنت أنتَ البطل .

لا تستغرب أبدًا، يا صديقي، فكُلنا أبطال!!

بعلبك / نيسان ٢٠٢٤

❖ ❖ ❖ ❖

الفصل الأول

أَنهكَه التجوال بعربة القمامة. وضع مكنسة البلان ذات العصا الطويلة فوق العربة، وجلس يستريح على درج السراي الحكومي، في مدينة الناصرة. وجد صحيفة مطوية، ملقاة إلى جانبه. تناولها: جريدة فلسطين. العام العشرون. صاحبها عيسى داوود العيسى. يافا. السبت ٦ أيار مايو ١٩٣٦.

تصفّح العناوين العريضة، هزّ رأسه طربًا وفخرًا بانتصارات الثورة الكبرى، المندلعة قبل عدة أيام في يافا. فتح الصفحة الثقافية، كانت مخصصة بالكامل لتحقيق مصوَّر، بعنوان(بعلبك مدينة الآلهة والجمال). المصوِّر كان بارعا في إظهار جماليات المدينة: القلعة الشامخة بأعمدتها الستة، معابدها الثلاثة، رأس العين، مُصَلى الشيخ

عبدالله، البساتين الممتدة، السوق القديم، سلسلة جبلية معمّمة بالثلوج، طقس جاف، ماء، وخضراء، ووجه حسن.

دقة وصف الكاتب جعلت (أبوخليل) يلحس شفته العليا، رافعًا حاجبيه، متلذذًا بِلَبن غنم، تعلوه طبقة قشطة مبرغلة، متعرجة، سميكة. هواء عليل، ماء عذب، تتباهى كأس الشاي بصفاء لونه الأحمر القاني.

قَطعَت القراءةَ سيدةٌ منتصبة القامة، جميلة التسريحة، تعقد منديلا مُشَجّرًا على رقبتها: «بتقرأ يا شاب!؟»،

- «بَكتب وبحسب كمان، تركتُ المدرسة بعد الصف الرابع، وكنت الأول بالصف».
- «اُترك كل شي، وتعال معي، أنا رئيسة البلدية».

وصار موظفا في قسم المساحة؛ يعود إلى قريته القريبة(عين ماهل) في العطلة الأسبوعية، لابسًا بدلة أنيقة، وحذاء لامعًا. يتباهى أمام أهله والأصدقاء بثلاثين جنيهًا فلسطينيًا، يقبضها آخر كل شهر. يضعها في كف والده الحاج خليل، بعد أن يُقبّلها، فتنهال عليه دعوات الرضى والتوفيق؛ وتُصَرصِر والدتُه، الحاجّة آمنة، بعضًا

منها لزوم مصاريف البيت، ورحلَة الحجّ التي تتوق إليها. تفتح كفّيها، تدعو لابنٍ مكّنها من أن تتصدق، فلا تعرف شمالها ما تُنفق اليمين.

ابتسم الحاج في وجهها، وهو نادرًا ما يبتسم: «صار بمقدورنا أن نشتري أرض(الوعرة) ونعمّر بيتا كبيرًا؛ نُزوّج محِمد، ويسكن معنا في بيت مستقل».

- لكنه ما زال صغيرًا يا حاج.
- صغير، لكن فِعله كبير، مهندس مساحة قدّ الدنيا. نترك البيت القديم للغنم، قلبي معلق بالغنم يا حاجّة. الغنم غنيمة؛ لكن محِمد عنيد، كان يكره الغنم والرعي، بعكس إخوته. لطالما ردد، بأن شُغل البلدية في الناصرة، أهون عليه من المطاحشة وراء الغنم، وشَمّ بعرها.
- أنت ظلمته يا حاج، حرام عليك، كان يرغب في إكمال تعليمه، ليصبح أستاذ مدرسة.
- أستاذ !؟ بلا أستاذ، بلا هَمّ ع القلب. هذا الأستاذ أبو فيصل النصراوي، لولا البيض، والخبز، والخضرة، التي يتلقاها هدية من الناس، لمات من

الجوع.

كالعادة، رجع أبوخليل من الناصرة، عانَق الوالدين، قبّل اليدين، وجلس:

❖ «محمد يابا، ستة عشر عامًا عمرٌ مناسب للزواج، أنت موظف مرموق، لا ينقصك شيء».

قالها والده، فأضافت الوالدة: «والعروس جاهزة، فاطمة المصطفى، تربطكما علاقة حب منذ مدة طويلة؛ قَطَعتَ الملبّس من البيت، وأنت تقبض وتعطيها».

محمد كان الابن الأكبر، وهذا ألبَسه الكنية مباشرة(أبو خليل) على اسم والده، مذ كان صغيرا. هل يجرؤ على عدم تسمية ابنه (خليل) إن رزَقه اللّٰه الولد؟ فِعلة شنيعة، قد تُشعل حربا ضروسا في البيت، وتورث الشقاق، والنزاع، والحقد الأبدي.

كان عرسًا غير عادي؛ عروس صغيرة تتشبّث بلعبتها، وعريس يَفر من غرفة الزوجية؛ يلحق به الشبان؛ يُعيدونه محمولا على الأكتاف، فتقهقه عين ماهل.

عملُه مساعدًا للمسّاح مَكّنه من التجوال في فلسطين كلها، يقيسون ارتفاعات الهضاب، وأعماق الوديان؛

يفـــرزون قطـــع الأرض المملوكـــة عـــن الأرض المشـــاع، فتكتحل عيناه بجنّات إلهية حقيقية، تحفة للناظرين.

تُصافِحه، فيسألك: «من أين أنت؟».

تقول مثلا: «من دير البلح بغزة». فيستلم دفّة الحديث، ويخبرك عن مقام الخضر، المقام فوق كنيسة بيزنطية قديمة، والذي صلى فيه مرات عديدة؛ ويفاجئك بما لا تعرفه أنت عن مسقط رأسك، أو مكان سكناك، وقد يذكر لك اسم أحد أفراد عائلتك، واسم شيخ الجامع، وعنوان مطعم الفلافل المشهور هناك.

قـــال ربُ العمـــل، المهنـــدس البريطـــاني: «جهـــزوا أمتعـــتكم، سنُعســـكِر قـــرب (يعبَـــد) في جـــنين لمســـح المنطقة». وزّع الأدوار بدقة، وسار العمل بانتظام.

لاحظ الفريق أمرًا غريبًا يتكرر كل ليلة، أبو خليل يخرج وحده بعد تناول العشاء، ولا يعود إلا عند منتصف الليل. كانوا يكررون السؤال، وكان يكرر الإجابة «أنا من عشاق الليل، أتعشّى وأتمشّى».

ذات ليلة، عاد باكرًا، يسيل الدم من صدغه الأيمن، وسُترته مزروعة بالأشواك، فبدا كالقنفذ.

أسعَفه أعزّ رفاقه (أبو موسى) وقبل أن يسأله قال: «انزلقتُ على صخرة وتدحرجت بين الحجارة والأشواك».

كاد أبو موسى يصدّقه، لولا أن رأى برهان ظنِّه، ولمس في جيبه رصاصات بارودة تشيكية.

❖ اِحفظ السر يا بوموسى، فيها خراب بيت.

❖ أي سرّ تريدني أن أحفظه ؟ غدًا سأذهب معك، إما قاتل أو مقتول . أيّ شرف يَنشده الإنسان أعظم من هذا الشرف ؟ الإنجليز عرصات أكثر من اليهود (طيزين بلباس) يريدون القضاء على ثورة الشيخ عز الدين، كي يُسلّموا البلاد لليهود ويرحلوا.

❖ هل تتقن استخدام السلاح؟

❖ طبعًا، عندي بارودة صيد؛ والتشيكية ليست بعيدة عنها.

لم ينل أبو موسى شرف إطلاق النار. عند الصباح جمعَهم المسؤول: «جهزوا أنفسكم، أتممنا المهمة هنا؛ سنمسح قضاء حيفا».

أقيم المعسكر قريبًا من مقام الخضر، في أسفل

المنحدر الشمالي لجبل الكرمل، على ارتفاع خمسين مترًا عن سطح البحر.

شعر أبوخليل براحة نفسية عارمة، هو الذي نشأ في طاعة الله؛ فكان أول عمل قام به، بعد نصب الخيام، زيارةَ المقام.

شعر بالهيبة والطمأنينة، وهو يرقى الدرج الطويل نحو مدخل المَقام، حيث المغارة الرئيسية. شاهَد شابًّا يبتسم له، صافحه: «إسمي معروف، درزي من السويدا، أعمل في مصفاة حيفا؛ أقضي معظم وقت فراغي أتعبّد هنا.

تعال أشرح لك عن المقام: هو كهف صخري، سكنه هيليوس إله الشمس عند الإغريق، الذي ركب مركبة النار، وطار في الفضاء. وحين جاء البيزنطيون نسبوا المغارة لإيليا، الذي هو إلياهو عند اليهود، وإلياس عند المسلمين والمسيحيين؛ هو الخضر بعينه عند البعض، وشقيقه عند البعض الآخر، وهو مارجرجس عند المسيحيين. ومهما اختلفت الأديان حوله، فإنه مقدّس، ذو كرامات وخوارق عندها جميعًا.

أغلب الظن، أنه لجأ إلى هذه المغارة هاربا من بعلبك،

بعد أن هدده الوثنيون، عبدة الصنم (بعل) بالقتل. يأتيه الزوار من كل البلاد، يقدّمون النذور والصدقات، يطلبون الشفاء، يتوسلون به إلى الله، فيستجيب للتقيّ المخلص، ويُلهم العاصي قائلا: «اِعمل صالحاً».

صلى أبو خليل ركعتين خاشعتين لله، قرأ فيهما ما يحفظه من سورة الكهف، ثم راح يتجول في المقام. رأى عدة رجال يُعلّقون في رقابهم سيوفا فضّية، مشقوقة الرأس، صافَحهم: «الشباب من وين؟».

❖ «لبنانيّون، بعضنا من الجنوب، والبعض من بيروت، وهذا الأخ من بعلبك؛ كلنا نشتغل بميناء حيفا».

شاهد أناسًا يضعون الصليب على صدورهم، ويهودًا يهزّون رؤوسهم إلى الأمام والخلف، وشيوخًا موحدين دروزًا، يلبسون القلنسوة والشروال، وشابًا أسمر يتحدث بلهجة عراقية؛ سلّم عليه فقال: «إيزيدي من شمال العراق، وهذا صديقي عامر، زرادشتي».

تعجّب أبوخليل: «ما معنى إيزيدي وزرادشتي؟».

❖ «طوائف دينية. أليس غريبًا أنّ دُور العبادة تُفرّق،

وهذا المقام يجمع؟».

أسند أبو خليل ظهره إلى الحائط، وراح يراقب هذا الخليط العجيب الغريب من أديان، ومذاهب مختلفة؛ يعبدون الله كلٌ بطريقته الخاصة، يضعون الصدقات في الصندوق؛ ما همّهم من يستفيد، طالما أن الفقير إنسان.

وجد مصحفًا على الرف، تناوله، انتقى مكانًا منعزلا، وراح يقرأ. غَلَبه النوم، فرأى سبعة أقمار في السماء، يتألق بينها بدر واسع الدائرة، شديد اللمعان؛ بَهر عينيه، فغطاهما بكفه، ثم فتحَهما مستيقظًا من نومه؛ رأى شيخًا طاعنًا في السن، يتهادى نحوه، شديد بياض الثياب، شديد بياض الشعر، في وجهه سيماء هدوء التقوى؛ سلّم عليه، وجلس قبالته: «لم أَرَك هنا من قبل، تبدو شابًا متديّنًا، مِن أين أنت؟».

❖ «مِن عين ماهل، أعمل في مصلحة المساحة. المعسكر قريب من هنا. هل تستطيع تفسير الأحلام؟».

❖ أحاولُ. تفضّل».

قص عليه الرؤيا. تبسّم الشيخ: «التفسير واضح وضوح

الشمس: تُنجب سبعة أولاد ذكور، والأوسط فيهم يصبح رجلَ دين رشيدًا؛ سيكون ذا شأن عظيم». ثم اختفى من أمامه.

انتفض مرعوبًا، بَسمَل، وتعوّذ باللّه من الشيطان الرجيم، ثم انطلق كالسّهم إلى المعسكر، يتلّفت خلفه.

مثلما كان يقدّس وقت العمل، كان أبو خليل يُقدس المساجد؛ داوم في حيفا على الصلاة في مسجد الاستقلال؛ ما زال طيف الشيخ عز الدين ماثلا فيه، صوته يضج في جنباته، مُحَمّسًا الناس على الجهاد. حضر دروسًا دينية مع أتباع الشهيد، تعرّف على المجاهدين، قال له أحدهم: «استُشهد خالك عليّ وأحمد قُدّامي». قاد أبو خليل المظاهرات، استشهد اثنان من المجاهدين بقربه ونَجا، فأيقن أن عمره سيمتد حتى تتحقق الرؤيا.

أخبر زوجته القصة، فسايَرته مجاملةً: «هل شاهد أحدٌ غيرك الشيخَ لمّا اختفى؟».

❖ لا .

❖ أكيد سيتحقق الحلم، أنت دائمًا ترى المنامات وتقول: «تحقَّقت». ثم بَربَرت بصوت خافت: «اللّه

يعينك، تظن نفسك عظيم الشأن، ربما نسمعك تقول: رأيتُ جبريل».

❖ ❖ ❖ ❖

الفصل الثاني

دزينة من السنوات قضاها في معسكرات المساحة، يتنقل بين أقضية فلسطين؛ كان أطولها مدة، وأروعها، في(الرملة). أقام الفريق في مبنى البلدية، يتجمهرون حول أبي خليل، يروي لهم ما يقرأه في مكتبة البلدية من كتب الدين والتاريخ، وينشد لهم قصائد حفظها لفطاحل الشعراء.

ذات خلوة في المكتبة، عثر على كتاب لافتٍ للنظر، أوراق صفراء ضمن غلاف مهلهل، تنبعث منه رائحة العفن(الزهر النضر في حال الخضر) للحافظ ابن حجر العسقلاني.

سأل أمين المكتبة: «أريد شراء الكتاب، أين أجده؟».

❖ «هو هدية لك، عندنا نسختان إضافيتان منه».

فرح به فرحًا جعله شديد الحرص عليه.

قرأه مرّتين، تتبع أقوال العلماء، قارن بينها، فوجد اختلافًا كثيرًا وكبيرًا حول شخصية الخضر، وهل هو حيٌّ مخلّد، أم ميت ؟ امتعض: «يختلفون على البديهيات؟! رأيته في المقام، حادثْتُه. إنه حيٌّ، نعم، حيّ؛ هل سأُكذّب عيوني؟ إن اللّه على كل شيء قدير».

أقنع زوجته بصوابية الرؤيا، وراحا يُنجبان للحياة مولودًا كل عامين؛ فما حلّ عام النكبة إلا وفي بيته ثلاثة ذكور، وبنت واحدة.

استعرت المعارك عام ثمانية وأربعين، لم يغب عن وظيفته في مصلحة المساحة، كما لم يتخلّف عن الجهاد أيام العُطَل. شارك في معركتي(الشجرة) و(عرب الصبيح) وأبلى بلاء حسنًا، كيف لا، وهو مضرب المثل في التصويب بين الصيادين. أشدّ ما كان يؤلمه أن يتناوب مع رفيقه على بندقية واحدة.

قال لأمه: «واللّه، أخذت بثأر شهداء عين ماهل الأربعة عشر، وبثأر أخوالي علي وأحمد».

دخلت الجيوش العربية الفتيّة، طرية العود إلى فلسطين لنجدتها؛ سِلاح بعضها كان فاسدًا، نوايا بعضها الآخَر كانت كذلك. انهزمت أمام العدو؛ سقطت المدن والقرى تباعًا، حدثت المجازر، اغتُصبت النساء؛ فكان لا بد من اللجوء المؤقت إلى دول الجوار.

«لن ينالوا ثأرهم مِني». قالها أبو خليل، وهو يَقصد وجهته.

لم يكن لديه دابة كباقي الفلاحين، فتأخر عن الجماعة. كانت أم خليل تحمل صرة طعام على رأسها، ولدها الأصغر في حضنها، وجَنينًا على وشك الولادة في الرحم. أبو خليل كان موكلا بمهمّتين؛ أن يحمل صُرّة ألبسة على كتفه، بداخلها مصحف، وكتاب قديم؛ وأن ينقل أولاده الثلاثة: يحمل أحدهم مسافة مئتي متر، يتركه مع الصُرّة، ويعود ليحمل الآخر ـ هكذا طوال طريق طوله خمسون كيلومترًا، نزولا وصعودًا ـ حتى وصل إلى(بنت جبيل).

لبث وعائلته في العراء، تحت أشجار الزيتون، تُظلّلهم زرقة سماء تموز، وتحملهم أرض شديدة الشبه بعين ماهل.

تحسس جيبه، فلم يجد غير قطعة نقد معدنية يتيمة، خمسة قروش، أطبق كفه عليها، رسم بذراعه دوائر مغلقة في الفضاء، ثم قذفها باتجاه فلسطين: «هكذا يمكنني أن أُقسم صادقًا، أنني بدأت من الصفر؛ هل هناك أقسى من أن تبدأ عائلةٌ حياتها من الصفر؟».

هزّت أم خليل رأسها بحسرة «إن ظلت هيك مليح».

مسكينة أم خليل !! لم تكنز ذهبًا؛ ولو فعلت، لابتلعت الليرات الذهبية، كما فعلت إحدى اللاجئات الميسورات. مسكينة هي أيضًا، اعترضها قطاع طرقٍ، يشبهونها كثيرًا، لهجَتُهم لهجتها، أجبروها على شرب زيت الخروع؛ وحين قرقرت أمعاؤها، دفعوها إلى التغوط في حقل الذرة، فلمع الذهب الرنان بين البراز.

هكذا تساوى اللاجئون تحت خط الفقر المدقع، فلا تشاوف، ولا كبر؛ لا ثراء، ولا ازدراء.

حضرت شاحنات كبيرة، وبضع حافلات إلى بنت جبيل. صاح المشرف على التنظيم: «كل شاحنة مكتوب عليها مكان توجّهها؛ ولكم الحرية في اختيار المخيم الذي ترغبون».

تـدافع اللاجئـون مخـتلطين ببعضـهم، كمقدمـة ضـرورية للفـرز. لمـح أبـو خليـل كلمـة بعلبـك، فـانطلق إلى الحافلة، مسرعًا مع عائلته. قال لزوجته بلهجة متحسّرة: «اللّه أعلم بما ينتظرنا هاهنا».

❖ «لا، وأنا أعلم أيضا».

طـوال الرحلـة، كـان أبـو خليـل شـاردًا مـع المنـاظر الطبيعيـة، يقـرأ اللافتـات المعرِّفـة بـالقرى والمـدن، مرجعيـون، حاصـبيا، راشـيا، برالياس، فيعقـد مقارنـات بينها وبين ما قرأ عن لبنان في مكتبة (الرملة). لم تختلف طبيعة الجنوب عن هضـاب فلسـطين في شـيء. سـهل البقـاع يشبه سهل مرج ابن عامر، سجادات من زروع وطين، تُغري النـاظرين؛ إلا أنـه محاصـر، مسـجون بـين سلسـلتين مـن شاهق الجبال؛ بينما المرج الذي هناك لا يعرف القيود.

ظهـرت أعمـدة القلعـة السـتة مـن بعيـد، فتـذكر أبـو خليل التحقيق المصور، الذي قـرأه في جريـدة فلسـطين، في الناصـرة، وهمـس لنفسـه: «أتمنـى أن تكـون بعلبـك مثلمـا قرأت عنها».

توقفـت الحافلـة أمـام بوابـة حديديـة، موصـدة بقفـل

ضخم، تعلوها لوحة معدنية صدئة، كتب عليها(ثكنة ويفل).

نزل الركاب. أُنزلت حقائبهم والصرر، واقتعدوا الأرض، انتظارًا لفتح البوابة.

انتشر الخبر في بعلبك بلمح البصر، فهرع الناس شيبًا وشبابًا، ذكورًا وإناثًا، لرؤية اللاجئين. تهامسوا فيما بينهم: «إنهم يشبهوننا».

بعضهم رقّ قلبه لمنظرهم، وبعضهم سَخِر : «كان عليكم أن تموتوا في أرضكم، ولا تخرجوا».

سَمعه عجوز محنّك، فردّ عليه: «المثل عندنا يقول (الفَصّ ع المُتّكي هيّن) (الحكي مش مثل الشُّوف) حين تسمع إن العدو اغتصب نساء القرية المجاورة، وأنت وأهل قريتك لا تملكون السلاح، تكون ديوثًا مجنونًا إذا لم ترحل، وتحافظ على عرضك. ثم إننا خرجنا بشكل مؤقت، حتى تهدأ الحرب ـ على أمل الرجوع ـ لكن الحرب لم تهدأ، وربما لن»...

فُتحت بوابة المخيم، وانتشر اللاجئون، يختارون المكان المناسب للسكن: عمارة في الوسط، مستطيلة،

كبيرة، من ثلاث طبقات؛ وعمارة أصغر منها قرب الطريق العام؛ إسطبلات، وغرف مستطيلة تحيط بالمخيم من جهاته الأربع، تَمّ تنظيفها، وتقسيمها بقواطع خشبية ملبّسة بالكرتون، فصارت غُرفًا، غُرفًا هشّة، تحجب الرؤية؛ لكنها لا تمنع تأوّهات الفحيح.

هبّت الأحزاب في بعلبك للنجدة، وتنافس بعض الأهالي في تقديم المعونات، بُسطٌ منسوجة من ثياب مهلهلة، أغطية، وبعض الأواني، والأطعمة.

توالى تدفّق اللاجئين إلى المخيم بأعداد كبيرة، فاستدعى الأمر حضور القائمقام، والدرَك، لتنظيم الإسكان، ومنع التلاسن، والمشاحنات بين اللاجئين.

فُرز المنتظِرون بحسب قراهم في فلسطين، تمهيدًا لإيوائهم، قريبين من بعضهم. وامتلأ المخيم بعدة آلاف من البشر، ينتظرون الصباح، كي يسكتوا عن الكلام المباح، فلربما تأتي سيارة محمّلة بالطعام.

اختار أبو خليل غرفتين، في الطابق الأول من البناية المتوسطة، واحدة لأبنائه الثلاثة، هي غرفة النوم والمطبخ والسُّفرة واللعب والعراك، وواحدة صغيرة له ولزوجته،

وللطفل الصغير وللصُّرر.

زرعت أم خليل رأسها في صدر زوجها: «كل شيء هنا مختلف.. كل شيء».

ردّ عليها: «أية حياة هذه؟ تنام مواطنًا، وتَصحو لاجئًا. نصبر، ولا بدّ أن نعود».

شعر اللاجئون بالاستقرار الجزئي، فانتشر الرجال في سوق بعلبك، يبحثون عن عمل، كلٌ بحسب ما يتقن من المهن. وانطلق أبو خليل، يستطلع بعلبك حيًا حيًا، وزقاقًا زقاقًا، ففوجئ بمقام مار جرجس الخِضر، في الحي المسيحي؛ هو عبارة عن غرفة صغيرة جدًا، محروسة ببوابة حديد مشبّك، وفي داخلها بلاطة رخامية مرتفعة، نُصب عليها تمثال منحوت صغير، على هيئة فارس يطعن التِنّين بالرمح. أخرج من جيبه علبة الكبريت، أشعل شمعة خامدة أمام التمثال، فسمع مِن خلفه طرطقة عكاز تدخل المقام. التفَت وشهق: «هُوَ، هُوَ». عجوز شديد بياض الثياب، شديد بياض الشعر، في يده اليمنى عكّاز، وعلى لسانه عبارة ترحيب: «أهلا بكم في بعلبك، سنلتقي مجددًا». ثم اختفى.

لم ينتفض مرعوبًا هذه المرة، شعر بالطمأنينة لعبارة الترحيب، فأيقن أن العناية الإلهية تُتابعه، وستَحرسه.

لم تدم إقامة أبو خليل في المخيم سوى تسعة أشهر، كانت حبلى بالشقاق والنزاع، حول طفل ضرب طفلا، امرأة أخذت دَور أخرى أمام حنفية الماء العمومية، شاب غمَز صبية فلمعَت السكاكين، تشقيعات إباحية، وشتمٌ للذات الإلهية؛ مظاهر نَفَر منها أبو خليل، الرَجل المحافِظ، الذي أدمن السكنى قبل شهور، في بيت حجري مستقلٍ ذي حديقة في الناصرة.

لم تغِب عن باله لحظةً تلك الرؤيا التي رآها، في مقام الخضر بحيفا؛ فشَمّر عن ساعد الجنس، في بيت صغير، على تلة الشيخ عبد الله اليونيني، شرق بعلبك. صار يرتع في بيته ثلاثة صبيان، وثلاث بنات. اشمأز كثيرًا، كان يَنشد الذَكر الرابع، واسطة العقد، والبدر المنير، فوُلِد (رشيد) بعد خمس سنين من النكبة. انفرجت أساريره في وجه زوجته: «بقي علينا الآن إنجاب ثلاثة ذكور، كي تتحقق الرؤيا».

كنت ترى (أم أحمد) الدايّة، رائحةً غادية إلى بيت أم خليل؛ ما إن يغيب رأسها حتى تطل قدماها، فصار النسوة يحسدن هذه اللاجئة، على إنجاب ستة عشر فَمًا، عاش منهم أربعة عشر؛ لم يسمعوا منها ردًا على طلباتهم إلا جملة تخديرية مخنوقة: «اللّه كريم. بعد تسديد الديون».

استحق أبو خليل لقب ربّ عائلة؛ قراره هو النافذ؛ رأيه هو السديد، كيف لا؟ وهو الذي تبدو مناماته كفلق الصبح، ثم تتحقق.

تعب في بعلبك، وعانى معاناة شديدة، كي يُطعم هذه الأفواه؛ كان يحلم بتعليمهم في الجامعات، لكنه لم يفرح إلا بشهادة جامعية، حَملها ثلاثةٌ منهم، مُدرّسان أرهقَهما الدَّين أيضًا، وشيخ أزهري اسمه (رشيد).

جاوز أبوخليل التسعين، وهو يحلم بالعودة، وبتسديد الديون؛ لكنه لم يَعُد، وظل يتباهى أمام الناس، ويقرع أسماع أبنائه، لمناسبة ولغير مناسبة (ما أنجزتُه لم ينجزه إنسان. أمثالي قلائل؛ ربيتكم أحسن تربية، علّمتكم أحسن تعليم، وورَّثتكم سمعة طيبة).

انتقلَت أم خليل إلى سجل الخالدين، ثم لحق بها أبوخليل بعد ثلاثين عامًا، صبيحة عيد الفالانتاين عام ٢٠١٥.

❖ ❖ ❖ ❖

الفصل الثالث

بعلبك ١٥ مايو ٢٠١٥

جلس الشيخ (رشيد) على شرفة منزله، يتأمل أشجار زيتون، زرعها والده، الذي تُوفي قبل ثلاثة أشهر. تذكّر كلمات، لطالما كرّرها والده على مسمعه: «الزيتونة بَركة البيت. من لم يذق زيتون عين ماهل، فاتَه نصف عمره؛ زيتون بَعليٌ، يسقيه الندى، فيمتلئ زيتًا يكاد يضيء. دائمًا أدعو لك في صلاتي، كي تزور عين ماهل يا رشيد».

قبل بضع سنين، قاد رشيد مسيرة العودة في مارون الراس، وأدلى بتصريح صحفي جاء فيه (العودة حلم وردي، يزور الحالم ليلا ونهارًا، يُنقش في خلايا ذاكرته، يتغلغل في جيناته، فيتناقله الخلف عن السلف).

تلتقي بأحد الصبيان في حافلة: «إنتا من وين؟».

❖ من حيفا.

❖ قصدي من وين بلبنان؟

❖ قلت لك من حيفا.

حبٌ جارفٌ، جعل رشيد لا يحلم بالعودة كأمنية مثالية يتغنّى بها، بل كفعل على أرض الواقع، فعل حقيقي ينوي تطبيقه.

الجدود والأخوال دُفنوا هناك. الأقارب ما زالوا ينتظرون الأقارب. فهل يجود الزمان بالعناق؟

بين فلسطين وبعلبك أرض مُتّصلة، وهواء واحد، فلا بد أن يَهزِم الشريط الشائك!

هنالك في الجليل، قرب الناصرة، تغفو قرية (عين ماهل). والشيخ، الحاج، الأستاذ، الكاتب، العجوز (رشيد) في بعلبك، يرنو إليها، وإلى خالة دهرية كفلسطين، تجذّرت فيها، اسمها نعمة.

لطالما حلمَت بأن تحادث رشيد، أن تسمع صوته؛ ولطالما تاق إلى رؤية خالةٍ تُذكّره بأمّه. الواتسأب تكفّل بتحقيق الأمنية.

قالت له: «تعال، أريد أن أراك قبل أن أموت».

كل الدلائل تشير إلى استحالة اللقاء.

قالت: «سأظل أحاول، لا مستحيل على نعمة، حتى لو اضطررت لمقابلة وزير الداخلية».

ملأ الأمل كيانه، فقال لها: «إن لم تنفع المغامرة فلن تضر، إسعَ يا عبدي، وأنا أسعى معك».

بعد شهر، فاجأَته بالبشارة: «هذه صورة الموافقة على لَمّ الشمل، تعال إلى الأردن؛ وهناك ستجد المعاملة جاهزة».

هنا تتضاءل الحروف، ويعجز اللسان عن التعبير. المخيلة وحدها، ترسم مشهد الفرح، ويكشف الدمع سر القلب الضاحك.

هو يرغب في العودة وكفى!

ما هَمَّه الذي سيحدث (أكثر من القرد ما مسخ اللّه!).

أنجز للحياة ما طلبَته من مهام. كان يتفاخر أمام أولاده، بما دأب والدُه على التباهي به (ما أنجزتُه لم ينجزه إنسان. أمثالي قلائل؛ ربيتكم أحسن تربية،

علّمتكم أحسن تعليم، وورَّثتكم سمعة طيبة). كان يردد دائمًا: «الفلسطيني في الشتات وردة فواحة، لكنها في مزهرية. لا بد أن ألتَحِم بالجذور. هناك سأتفيأ ظلال زيتونات كرمِنا، الصامد في وجه الريح. وصِيّتي كلمتان: ادفنوني فيه كي أحيا».

لم يبق من العمر أكثر مما مضى. (٦٢) رقم يُدني من القبر. لكن رشيد قرر أن يجعل منه مبتدأ حياة، هناك في منبت الأجداد.

دعا ابنه وابنته وزوجته لاجتماع هام، وعاجل: «سأُطلعكم على خطوة سأخطوها؛ ولكن إياكم أن تخبروا أحدًا بها (استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان) الأمر ليس عاديًا، بل خطير جدًا». تلعثمَت في فمه الكلمات: «حلم العودة تَحقّق؛ سأعود وأمَّكم، إلى عين ماهل في فلسطين».

ظن أنهم سيقفزون إلى السقف فرحًا، من حُسن ما بَشّرهم به، لكن الوجوم ارتسم على الوجوه.

* وهل أنا كرسي في البيت؟ تخطط وتنفّذ وحدك؟

اعترضَت زوجته أم محمود.

-لا، حاشاكِ، لم أشأ إخباركم قبل صدور الموافقة.

* وحدك تذهب، أنا لا أستغني عن أولادي، وجاراتي، عِشرة أربعين سنة. تريد أن تأخذني إلى بلاد أعيش فيها غريبة، وأبدأ في بناء صداقات، وعلاقات من الصفر؟

-أقاربكِ هم أقاربي، أنسيتِ أنك ابنة عمي؟

* أقارب بعيدون، لا أعرفهم، ولم نرَهم، لا أنا ولا أنت؛ خطوة ناقصة، ورأي غير سديد، يا أبا محمود. فلنَبق في بعلبك، هنا تشكّلت حياتنا الاجتماعية.

تقدّم الابن الأصغر، وضع كفّه على كتف أبيه: «بابا، أنت متشجع للعودة، لأنك كاتب رومنسي، حالم، لكنك لم تحسب حساب المستقبل. كيف تتحمل أن تعيش من دوننا؟

إذا رحنا نقضي يومًا، عند أهل زوجتي، تتصل بنا مرتين، كي تطمئن على أولادي، وتقول: لا تتأخروا، اشتقت لأحفادي. فكّر مليًا، الخطوة ليست سهلة».

عانقَته ابنته، والدموع في عينيها: «بابا أنت سندي. أنا شاعرة بالطمأنينة في الحياة، لأنك موجود بجانبي؛ لا تتركنا».

-«اسمعوني جيدًا؛ مذ وعيت على هذه الدنيا، وأنا أحلم بالعودة، ليل نهار. الأمر تحقّق، لا تمنعوني من تحقيق حلم حياتي، صرت على حافة قبري. ثم إن الأمور تغيّرت، صار بإمكاننا أن نتحادث، ونشاهد بعضنا عبر الواتسأب، وأتابع شؤونكم لحظة بلحظة. والأهم أننا قادرون على أن نلتقي، ساعة نشاء، في الأردن، في مصر، أو في أي بلد يقيم علاقة مع الكيان. لماذا تعقّدون الأمور؟ فكّروا قليلا، وستجدون أنني مُحقّ».

خرج رشيد، فقالت زوجته: «أبوكم يخطط لهدف آخر، هو يابس الرأس، مهما حاولنا إقناعه، فلن يتراجع؛ المهم، احفظوا الموضوع سِرًا بيننا، حتى نسافر».

الشيخ رشيد صار كبير العائلة الآن، بعد وفاة والديه، وإخوته الأكبر منه سنًا؛ هو الملجأ عند اشتداد عواصف الحياة؛ والمستشار في صغير الأمور، وكبيرها؛ فكيف يرحل؟

رغم تعلّق زوجته بمن بقي من أولادها في بعلبك، وبجاراتها، وصديقاتها، ومعارفها؛ لكنها استسلمت للأمر الواقع. أقنعَت نفسها، بأن فلسطين أقرب إلى

الأردن، حيث أهلها كلهم هناك. هي تحمل الجنسية الأردنية؛ تتَقلُّها بين فلسطين، والأردن، ولبنان، أسهل من شربة ماء.

داومَت منذ أربعين عامًا على الصبحية، صارت فرض عين، يتم دَوريًا حيث تقطن. تُجَهّز كل جارة ثلاثة أمور: طبخة الغداء، ولسانها، وسَلّة مواضيع. تتأنق سريعًا، وتقصد شقة الجارة، التي عليها الدَور.

اليوم نزلت مهمومة، تُفكر كيف سينتهي هذا التقليد الاجتماعي بعد عدة أيام. هل ستجد في عين ماهل صديقات، يتقنّ الحديث، وسرد المعلومات، والأخبار، مثل جاراتها البعلبكيات؟

الجارات لاحظن تغيّر أم محمود المفاجئ. اليوم تجلس صامتة، مكفهرة: «خير، ما بك؟ لستِ على ما يرام، كفى اللّه الشرّ؟». تساءلتْ أم سليمان.

* لا شيء يشغل البال؛ لكن الخبر مفاجئ؛ قرر أبو محمود أن نرحل، ونستقر في عمّان.

-يا وَيلي، ما هذا الخبر؟ ما الذي يدفعكم إلى هذا يا أم محمود؟ تعيشون بيننا في بحبوحة، واستقرار. قرار

متسرّع خاطئ. أبَعْد هذا العمر، تبدأون في تأسيس حياة جديدة؟».

* «تعوّدنا على تأسيس الحياة من جديد. حاولنا معه، لكن رأسه أقسى من الصخر؛ على أي حال، سنظل نزور بعلبك. ما لنا عنكم غنى، ولا عن الأولاد والأحفاد».

بعد خروج جارتين، تعمّدت أم محمود البقاء عند أم سليمان، التي تعتبرها أغلى البشر على قلبها، عزيزة عليها أكثر مما يتصوره العقل. مالت إليها بصوت خفيض: «عندك للسر مكان؟».

-«يا للعار! وكأنك لا تعرفينني، أنا بئر الأسرار، قولي، ولا تكترثي؟».

* «لن نستقر في عمّان، بل في عين ماهل بفلسطين؛ لكن، أستحلفك بالله، ألا تخبري أحدًا».

-«أكيد، اطمئني، ولا تحملي هَمًّا (هون حفرنا وهون طمرنا). لكن، والله، سأجنّ إذا رحلتِ. غيّروا رأيكم، منشان الله». وأجهشتا بالبكاء.

أرسل رشيد صورة جواز سفره، إلى ابنته في عمّان،

كي تستصدر له تأشيرة دخول.

«عشرة أيام وتكون جاهزة». قالتها ابنته، بفرح غامر.

هي مدة كافية، كي يُرتّب الأمور كلها؛ لكنها تصبح عشر سنوات، حين تُعجن بالترقُّب، والانتظار؛ فالفرح، كالترح تمامًا، يوتّر الأعصاب.

❖ ❖ ❖ ❖

الفصل الرابع

اللجوء لا يتطلّب بَرمَجة. هكذا برمشة عين، تَحدث الصدمة الوجودية الخطيرة، ويُتّخذ القرار، فتُصبح لاجئًا.

العودة هي التي تحتاج إلى التخطيط. جلس رشيد يُنظّم برنامج الرحلة؛ لا بد أن يودّع بعلبك شبرًا شبرًا، مسقط رأسه، ملعب طفولته، ومسرح حياته كلها. غير مقبول أن يسهو عن أي تفصيل، يورثه الندم، وزعل الأقارب. سيودّع بعلبك، لا كمكان يسترجع فيه الماضي فقط؛ بل ليُغربل الذكريات، فلا يبقى فوق الغربال إلا المُفرح منها.

منذ شبابه، يمقت السوق والتسوق، على العكس من زوجته؛ هي ككل النساء، تصبح مثل أم العروس في السوق؛ ذاكرتها سِجِلٌ لا يخطئ، تعرف مقاسات العائلة،

والأقارب في الأردن؛ لا تفقه من الدين إلا(تهادوا تحابّوا) فما على رشيد إلا أن يصمت، ويلوك غيظه، ثم يدفع دون نقاش.

كانت تئن وتشكو ليل نهار، من تمزُّق دائم في الرُكبة، تشبه الحَجَل في مشيتها؛ لكنها في السوق، تصبح حصانًا عربيًا أصيلا.

رشيد يعلم علم اليقين، أنه سيَعتِل أربع حقائب، تكفي لفتح دكان نوفوتيه، حقيبتان للأردن، ومثلهما لأقاربه في عين ماهل. خالته قالت بصدق: «لا تحمل إلينا هدايا، أنت الهدية الأغلى. وُصولك سالمًا هو مبتغانا». لكن المرحومة، والدته، أخبرَته أن (نعمة) تعشق مناديل الحرير الهندي، تجد منها في خزانتها العديد، وتظل تطمع في المزيد.

هو لا يعرف مقاسات أقارب، لم يسبق له أن رآهم، لكن ما ضاق على زَيد قد يناسب عُبيد. (اللّه يكره اليد الفارغة) هذا شعار زوجته، ظلت تردده على مَسمَعه، حتى صار مملا.

وقّع مع دار النشر عقدًا، لطبع كُتبه وتوزيعها.

تعمّد الصلاة في مساجد المدينة المختلفة، وحمل إلى كل منها صدقة جارية تحتاجها.

انقلب إلى شخص مبتسم، بعد أن كان (وجهه لا يضحك للرغيف الساخن). العوام يلقّبونه (أبو كشرة) والمثقفون يطلقون عليه (الشيخ الكئيب).

الآن يودّع بعلبك. يَلقى أحد المعارف في السوق، فيفتح ذراعيه على اتساعهما قبل أن يعانقه. يتعجب ذلك الشخص، ثم يقلب شفته السفلى، ويمضي.

بدأ بالقلعة؛ عانَق الآلهة فردًا فردًا في وداع أخير؛ وأخذ معها صور سيلفي تذكارية.

جوبيتر، كبير الآلهة، قال له: «أينما ذهبت، فأنت في مملكتي، كن صالحًا وكفى».

باخوس، إله الخمر، كرع القنينة دفعة واحدة، وقَهقه قائلا (ما غايب إلا استغنينا عنه، وما حاضر إلا احتجناه).

فينوس، إلهة الحب والجمال، طبعت قُبلة على خده، وقالت: «أحببناك يا رشيد فلا ترحل».

سقى القلعةَ دمعةً، ثم انعطف يتسكع في السوق

القديم، وسوق اللحامين؛ حيث تنتشر أفران الصفيحة البعلبكية؛ وحيث كان صِباه يشمشم رائحة خبز رمضان، وكعك العيد.

حول رأس العين طاف سبعة أشواط. أطعم البطّات في نبع البيّاضة، ثم جلس يحتسي القهوة، في مقهاه المفضل.

حضر أمسية شعرية في اللقاء الثقافي، الذي أَحبّه من الأعماق؛ ثم ودّع الحاضرين، محتجًا بالسفر، للإقامة في الأردن.

قصَد الحيّ، الذي شهِد قصة حبّه الوحيدة. وقف في مكان محدد، ثم تنهّد.

تسارعت دقات قلب الشيخ رشيد، فصرت تسمع لهاثه، وهو يرقى تلة الشيخ عبد الله، نحو البيت الذي وُلد فيه. مُحال أن يرحل، دون أن يُلقي عليه نظرة وداع أخيرة.

هو ليس بيتا فقط؛ بل منطلق ذكريات اللجوء. هذا اللجوء اللعين لا بد أن يُنتَزع من الذهن تدريجيًا، على مراحل، بحسب محطات طريق العودة، إلى فلسطين.

مُضحكة كلمة بيت حين تُطلَق هاهنا. هو غرفتان يتيمتان، ومصطبة؛ لا حمّام، ولا مطبخ؛ لا ماء، ولا

كهرباء.

كانت ليلة زمهريرية، من ليالي كانون الأول عام ١٩٥٣، والثلج يغمر الرُكَب، صاحت أمّه: «جاءني الطلق، آاااخ الحقني بالدايّة، يا أبوخليل، الحقونيييييي».

خرج أبو خليل مسرعًا، وقد انتصف الليل؛ خانَته الرؤية، كانت نُدفة الثلج بحجم حبة اللوز؛ انزلقت رجله على صخرة، فهوى. رجع يجر أذيال الخيبة، وقد غطى الثلج قسمات وجهه: «اُصمدي للصبح، الصباح رباح، أو تدبّري أمرك».

طلبَت منه استدعاء جارتها، الولود مثلها، وخرج رشيد مبتسمًا؛ هو الوحيد الذي ضحك عند الولادة، أيُصدَّق هذا؟ قسَمًا عظَمًا، لو كان يعلم ما الذي ينتظره في الحياة، لما خرج.

حاولت أُمّه والجارة ربط السرة ففشلتا؛ لا أحد يعلم كيف تَم الأمر؛ حتى أمّه نفسها لا تعرف مَن ألهَمَها عمليةَ الربط، المخالِفةَ لما اعتادت القابلات عليه.

أضحت سُرّته غريبة الشكل حقًا، كبيرة نافرة، مشقوقة الوسط، تُشبه عضوًا ما.

والده ضحك أيضًا، ضحك كثيرًا، وابتهج؛ كيف لا، وقد وُلِد الذَكَر الرابع، المبشِّر بتحقق الرّؤيا.

ذكريات استدرّت دمعات الشيخ رشيد؛ كان يتنهّد، ويتأوّه، مُحدّقًا في البيت مرة، وفي المخيم القابع أسفل التل، جهة الجنوب، مرة أخرى. تذكّر مقولة كتَبها ذات صفاء: «كل المخيمات ترنو إلى الجنوب، والمُصلّون قِبلتهم جنوبُ».

مسَح عينيه، فانساب شريط الذكريات:

هنا أمام بيتنا الأبيض، بلا تشبيه، أطعمتُ دجاجاتٍ ربّتها أمي. هناك لعبتُ مع أبناء الجيران اللبنانيين، لعبة السبع حجار، والغميضة؛ وعلمتُهم لعبة علّمنيها أخي، اسمها (جندر يحيى) ذات الخطط العسكرية؛ عيّدنا معًا، فرِحنا بالأعراس معًا، بَنينا بيوتًا من الحجارة معًا، ويوم دخلتُ مدرسة المخيم، لم يدخلوها معي، فأدركتُ أننا مختلفون.

كنت أشاهد رَجلا يحمل الزوّادة، ويتجه صعودًا، نحو أعلى التل. سألت أمي: «إلى أين يذهب هذا الرجل يوميًا؟». قالت: إلى الكرم.

وأين كرمنا يا أمّي؟ نظرَت إليّ، ودمعةٌ تترقرق على خدها: «كرمنا هناك، هناك، جنوب الجنوب».

كانت أمي ثلاثية الأبعاد؛ نَعم، هذا هو الوصف اللائق بها؛ تجلس، تهزّ بقدمها سرير الوليد الجديد؛ بيديها تحوك لنا كنزات الصوف؛ وبعينيها تَرقب قِدر الطعام، الرابض فوق بابور الكاز. هل عاشت أمي حياة واحدة فقط؟

كنت أترنّم، وهي تُهلّل لأخي الصغير كي ينام. ثم تُتبع ذلك بأبيات عتابا، تذكر فيها أهلها الصامدين، في عين ماهل، فتنهمر الدموع.

عندما نلتُ شهادة الصف السادس الرسمية، كان عدد الذكور في عائلتي قد اكتمل حول الرقم سبعة. تَحقّق حلم أبي أخيرا، كنت أنا ذلك البدر المُشعّ؛ فإلى المعهد الديني في بيروت إذًا.

أساتذتي في المدرسة رفضوا ذلك؛ زارونا، محاولين إقناع والدي بالعدول عن الفكرة: «كيف تختار الأول على المدرسة كلها، لهذا الاختصاص؟».

يومها، أجابهم بصَلَف الواثق: «غريبٌ كلامكم،

يوحي بأن قليل الذكاء هو مَن يجب حَشْره في المعهد الديني».

ابتسم المدير: «في المدرسة، كل الطلاب أذكياء بنسب متفاوتة؛ وأنواع الذكاء متعددة؛ الأمّة ينقصها علماء في الطب، والهندسة، والعلوم الطبيعية، لا رجال دين. أنت تريد تحقيق الرؤيا بأي ثمن، حتى ولو كان التضحية بمستقبل ابنك؛ أنسيت أنه فلسطيني؟».

بكيتُ حين سمعت كلام المدير؛ حزنتُ على مستقبلي الذاهب أدراج الرياح. طبطبَت أمي على كتفي: «لا تحزن؛ سأظل أدعو لك في كل صلاة، حتى تفشل خطة أبيك؛ وأنت صَلِّ أيضًا، وادعُ؛ ربنا قَطعًا سيستجيب».

لم يستجب الله الدعاء؛ وكانت هذه أول خيبة أمل في حياتي؛ نظرتُ إلى السماء دامعًا: «لماذا..؟».

قلت في سِرّي: «لِم لا أذهب إلى مُصلّى الشيخ عبد الله اليونيني، الكائن فوق بيتنا، أعلى التل؟ سمعتُ خطيب الجمعة يؤكد: التوسل بالأولياء الصالحين يحل العُقد. توضأتُ. أوصتني أمي: «ذبّل عينيك عنده، واستحضر الله أمامك، (إن لله رجالا إذا أرادوا أراد)

هكذا قال لنا الشيخ، في درس النساء».

قبل الدخول إلى المصلَّى المهجور، سمعتُ فحيحًا، وهمهمات تنبعث من الداخل. استرقتُ النظر، وذهلت؛ شابٌ وشابّة شبه عاريين، كانا مندمجين في قبلات حارة. تراجعتُ بهدوء، خشية أن يكتشفا وجودي، فيحدث ما لا تُحمد عقباه؛ لكنني تعثّرت بحجر، وارتطم صدغي الأيمن بالأرض.

أفَقتُ، فوجدت رجلا، يقف فوق رأسي، شديد بياض الثياب، شديد بياض الشعر؛ لحيته البيضاء تُلامس صدره؛ وحاجباه الكثيفان يحرسان عينين ناعستين؛ فيهما خشوع رهيف، وتقوى ظاهرة؛ صُعقت، شعرت بتَشنّج ملحوظ، في أسفل ظهري؛ وتحت الحوض في المكان الحساس؛ ساعدَني على الوقوف: «هذا مكان لا يرتاده الصبيان؛ اِحمِد ربك أن الفاسِقَين هربا، ولم يؤذياك. سيكون لك شأن عظيم.

بعد التخرّج من الجامعة، أنت ستكشف السرَّ الأعظم. أنت المؤهل لذلك؛ أتدري لماذا؟ سُرّتك الغريبة، وخروجك إلى الحياة مبتسمًا هما العلامة. ولكن السر

العظيم لن تكشفه هنا، بل في الأرض المقدسة، التي كتب الله لكم أنتم، لا لهُم. هناك في عين ماهل، قرب الناصرة، ستكشف السر. كُن مُختلِفا». ثم اختفى فجأة.

كبّلني الرعب. كدت أفقد عقلي. استجمعت قوتي، ورحت أجري نزولا نحو البيت. زاد التشنّج أكثر فأكثر، فشعرت بألم شديد.

تجاسرتُ على الوجع. كذبتُ على أمي بكلمات سريعة: «عند المصلّى ذبّلتُ عيوني. طلبت طلبي، والباقي على الله».

لم تصدق أمي الرواية. أنبأها بذلك اصفرار وجهي، وتعمُّدي إزاحة نظري عنها، فأمرَتني بحزم: «إحكِ لي ما حدث».

«لم يحدث شيء، لم يحدث شيء» ثم ركضتُ إلى الخارج.

نادتني. ملأَت طاسة الرَعبة بالماء، سَقتني، وهي تتمتم، فارتحت قليلا، ثم غلبني سلطان النوم.

لم أُخبر أحدًا بما رأيت، ولا بما حلَّ بي، خشية أن يتهموني بالجنون، أو يحملوني إلى مشايخ الرقية

الشرعية، وأطباء الأعشاب. انقضى الأمر، ولكنني سجّلت علامة تَعجُّب كبرى: لو كان الأولياء قادرين على التواصل مع اللّه، ونقل طلبي إليه، كما أكدَت أمي، فمِن الأَولى أن يكونوا قادرين على منع الفاحشة، قرب مقامهم الشريف!!

موقفٌ نزع الخوف من قلبي؛ جعلني بعدها أُكثر من التردد على المقام، المشرف على بعلبك، وعلى جبال لبنان الغربية؛ أراجع دروسي عنده، وأمارس العادة السرّية.

استسلمتُ لأمر والدي، وسُجِّلت في المعهد الديني، في بيروت. رسّبتُ نفسي في امتحان الدخول، مع سبق التخطيط مع أختي الكبرى. لكن صديق والدي ـ لا تجوز عليه إلا الرحمة ـ توسّط لي عند المدير، فقُبلت. واسطة في معهد ديني، جعلَتني أؤمن بعدها، أن الواسطة حلال، وما يُرافقها من محسوبية ورشوة حَلال الحلال.

حملتُ اللقب مباشرة، فصرت الشيخ؛ شيخ لم يتجاوز الثالثة عشرة من عمره؛ شيخ رغم أنفه.

والدي، ولا شك، كانت نيّته صافية تجاهي؛ جاهٌ وقيمة في المجتمع؛ تجلس في الصف الأول؛ ينادونك سماحة

الشيخ؛ مِن عندك يبدأ صب القهوة، وإليك ترنو الأسماع. تنهال عليك دعوات المناسبات المتنوعة؛ تنتظرك الولائم العامرة، فيندلق كرشك، وتتهدّل لغاليغك. لم يحسب والدي حساب المستقبل، وانعدام فرص العمل لرجل دين فلسطيني في لبنان.

ربما ليس في الأمر تمييز مُتعمَّد؛ هناك فائض عددي من المشايخ (أكثر من الهَمّ عالقلب) وليس مقبولا إقصاء ابن البلد عن وظيفة، كرمى لعيون شيخ فلسطيني لاجئ.

عقَدت لي أمي فرشةً، ولحافًا، وأغطية، ضمن بطانية سوداء؛ حملتُها على ظهري، كما يفعل العتّالون، ودخلت المعهد مع الصِبية، والشبان الداخلين؛ كلهم يتحدثون بلهجة لبنانية، وأنا ألفظ كلمة البنْدورة بتسكين النون، فيتضاحكون هازئين: طِلِع لاجئ فلسطيني.

❖ ❖ ❖ ❖

الفصل الخامس

التمييـز العنصـري والتنمّـر طبـع متأصـل في البشـر. ولكن أن تعانيه في معهد ديني، فهذا مُستغرب. لا أذكر عدد المرات التي قررت فيها ترك المعهد، لهذا السبب. كنت أشكو هَمّي لأمّي، فتحضنني، وتقنعني ببسمة عذوب، وكلمات تفتح أمامي آفاق الأمل؛ فأروح أتحدى نفسي، وأنال أعلى الدرجات؛ لا لكي أصير مضرب المثل في المعهد فقط، بل لأكشف السر الأعظم أيضًا.

قرب بيتنا هنا، جانب السور الأيسر، حدثت قصتي الغريبة:

كانت ليلة صيفية صافية. البدر يُسلّط ضوءه على بعلبك، مُحوّلا الليل إلى نهار. خرجتُ وتبوّلت جانب السور، فسمعتُ صوتًا، لا يمكن وصف شِدّته: «لا تشخّ

هـون». انقطـع بَـولي؛ تجـرأت، وفتّشـت المنطقـة مليًّـا؛ لم أر أحدًا. كمَنت خلف صخرة ناتئة للحظات، ظنًا مني، أن الرجـل قـد اختبـأ لإخـافتي؛ ثـم عـاودت التفتـيش طـولا وعرضًا، فلم أجد أحدًا.

عـدت إلى البيـت، وكالعـادة، لاحظـت أمـي اصـفرار وجهي. أخبرتُها بمـا حـدث، فـرَوت لـي مـا يتناقلـه الجيران؛ أن رجـلا صـالحًا مـدفون حيـث تبوّلـت؛ وأن صـاحب البيـت بنـى السـور فـوق القـبر. سَـقَتني بطاسـة الرَّعبـة مـرة ثانيـة؛ لكنني لم أخبرها عن طنين في الرأس، يلازمني منـذ تلـك الحادثة.

بيــت جارنــا كهــف أســرار. حضــرَت بعثــة أثريــة أسترالية، طرَقت باب بيته، فجاء إلينا يطلـب أحـدًا، يـتقن الانجليزية. ذهبتُ معه، وحاولـت قـدر اسـتطاعتي لعـب دور المترجم. طلب الخبير من جارنا الكشف على غرفة محددة من بيته؛ كانت أرضيتها إسمنتيـة؛ أخـرَج الخـبير خريطـة، وراح يقـيس الأبعـاد؛ ثـم ضـرب بقدمـه مكانًـا محـددًا، قائلا: «هنا باب السرداب».

تعجّب جارنا سائلا: «أيّ سرداب، وما المطلوب؟».

طمأنه الخبير: «سنَحفر، ونحن متأكدون، من أن هذا السرداب يؤدي إلى القلعة؛ بل ويتمدد تحت الأرض، متفرّعًا نحو جبيل، ودمشق؛ ويتجه جنوبًا نحو درعا، والأردن وفلسطين؛ حفرَه الرومان كقنوات مياه، تغذي المنطقة كلها من الأنهار والينابيع؛ وربما كانت له استخدامات أخرى. لا تقلق؛ بعد الحفر، سنعيد الغرفة أحسن مما كانت عليه». وجدوا باب الدهليز. نزل أحدهم، مصطحبًا معه كشّافًا ضوئيًّا، ثم عاد يرتجف، وهو يتأتئ: «له اتجاهان، واحد نحو القلعة، وآخر نحو الجنوب، ولكنه مردوم بالحجارة والتراب».

سألتُ أمي: «ما دامت المنطقة مسكونة بالعفاريت، ما الذي يجبرنا على الإقامة فيها؟». فقالت: البيت المستأجَر رخيص.

عبير الذكريات ضج في عقل رشيد، وخلخل كيانه، كاد يلغي فكرة العودة إلى فلسطين نهائيًّا، لكن نداء الأرض غَلب.

اليوم التالي، قرر تخصيصه لتوديع المخيم، فالمخيم يستحق منه الوداع. كان يردد (المخيم فلسطينٌ خارج

فلسطين). ومع ذلك يجب تنظيف الذهن من ذكرياته؛ لأنه الممثل الشرعي الأصدق للجوء.

صلى الظهر في مسجد المخيم. صافح المصلين جميعًا، ثم جلس في الخارج، على حافةٍ قرب المدرسة، وشرد مع الماضي بِعَجره وبَجره:

-هذا هو مخيمنا، مسكن الأتراب والأحباب، كان اسمه ثكنة (ويفل).

بعد دخول الثورة الفلسطينية إلى لبنان، صار (مخيّم الجليل). درستُ في مدرسته الابتدائية حتى الصف السادس. كنت كل صباح، أنزل من بيتنا هذا نحوه، تمام السادسة صباحًا، مهما كانت حالة الطقس، صحوًا، ماطرًا، مثلجًا، زمهريري الريح، كي أستلم حصة عائلتي من الحليب. كلمة حليب منمَّقة، رومنسية جدًا؛ هو بودرة حليب، يتمّ تذويبها، وتسليمها للاجئين. حليب ماذا؟ الله أعلم. ثم أعود إلى البيت مسرعًا، كي تُحضّر لنا أمي فتّة حليب؛ سيتبادر الكعك إلى الذهن؛ خابت الظنون؛ هو الخبز الحافي، اليابس منذ أيام. تقول أمي: «حرام نرمي النعمة». وقد عرفنا لاحقًا، أنها تُجامل

القدَر، وتُجمّل المأساة. كنا نشعر بطعم العفن، ننظر إلى بعضنا وقد غصصنا باللُقم، ثم نبلعها. ما الذي يُجبرنا على ذلك؟! لا فطور غير هذا الذي أمامنا.

في أحيان كثيرة، كنت أعود بالإناء فارغًا. يقول الموزّع بثقة، ووجه عبوس: «فِشّ حليب اليوم». فيستعاض عنه بالشاي، ويغدو الفطور فتّة شاي.

طبعًا، يمكن تخيل منظر اللاجئين، أمام شباك تسليم الحليب. الطابور رفاهية لا نطيقها، والدَّور لمن غَلَب. هذا يعني، أن يُدفع صبيٌ مثلي إلى الخلف؛ فيتأخر الفطور، ونتأخر عن المدرسة، فننال العقاب بالعصا.

مشهد مماثل كنت بطلا فيه، يوم تسليم التموين الغذائي (الإعاشة) في أول كل شهر: طحين مُطعّم بالبروتينات المتحركة، سُكّر رطِب، أرُز مُكسّر الحبات، وبعض الحبوب المسوّسة. أرجع إلى البيت، حاملا هذه الخيرات على ظهر دابة (أبو العيلة). تهرع أمي كي تُنزل الحِمل معه، ضاحكة مستبشرة لوصول غذاء العائلة الشهري، ولمنظر صبيٍ معفّر بالطحين، من رأسه حتى قدميه.

كانت أمي تنشر ما نستلمه من الفول، والعدس، والحمّص في الشمس. أرى السوس يتسرّب منها؛ أُمسك حبة الفول، فتطقطق بين أصابعي؛ ثم تهرع أمي لعمل الفول المدمس؛ وكنا لا نجد إلا القشور فقط. أكثر ما كان يُسعدنا حين تَدهن لنا قطعة خبز بسمن الإعاشة، ثم ترش عليه بعض السكر، هذا كان (كيك) اللاجئين.

لطالما دعوتُ الله، أن تقطع الأمم المتحدة عنا هذه المعونات! كنت ألقى الأمَرّين عند استلامها، ثم أرضى بقُبلة، تطبعها أمي على خدي، مع سَيل من الدعوات.

أكثر ما كان يفرحني وأختي، حين نستلم كرت المطعم؛ يتناول طلاب المدرسة الغداء فيه، بعد انتهاء الفترة الصباحية؛ ونبقى في المخيم لبعض الوقت، ريثما يُقرع جرس الفترة المسائية؛ ثم نعود بعد الرابعة عصرًا إلى البيت، منهكين، بوجوه شاحبة ممصوصة متعبة.

أحيانًا كثيرة، كنا نجد المطعم مقفلا، لأسباب نجهلها؛ فتشتري أختي بعشرة قروش حلاوة، نأكلها مع قطعة خبز، تدسّها أمي احتياطًا في شنطة المدرسة. أختي

كانت طماعة، مثل جميع البنات؛ تعطيني من الجَمَل أُذنه، وتلتهم الباقي.

أشكوها لأمي، فتلحق بها، كي تؤدّبها تأديبًا تربويًا بالشبشب. ثم أنال من أختي قرصة أخوية تؤلم.

كنا ننزل من بيتنا إلى المدرسة، رغم الطقس الماطر، فنَصل مبلولي الثياب، نرتجف من البرد؛ وإذا أثلجت، ترى واحدنا كالدب الأبيض، لا يظهر من وجهه إلا عيونٌ بالكاد ترى. وما زالت سقسقة الماء، الذي كان يملأ جزمتي السوداء، تضج في رأسي حتى الآن.

كانت بيوت المخيم للإقامة فقط؛ فلا ماء إلا ما تملأه المرأة من الحنفيات العمومية؛ ولا إنارة في الليل إلا على ضوء قناديل الكاز؛ فترى دموع الناس منهمرة؛ والصداع يحرمهم لذة النوم.

لا بيوت خلاء أيضًا. يحمل الواحد منهم إبريق ماء من التوتياء، ثم يتوجه نحو دورات المياه العمومية، المُقامة فوق غرفة مستطيلة، كخزان للفضلات. تصعد درجتين، تضرب برجلك قائلا (إحم إحم) فيرُد عليك مَن في الداخل: (في). وترجمةُ حرف الجر هذا: (التواليت مشغول). تنتظر،

وأنت تسُد أنفك بالسبابة والإبهام، ريثما يخرج النزيل، منفرج الأسارير، يطبطب على بطنه، تقول له: (شُفيتم) فيرُد: (عوفيتم) هكذا هي العادة.

أحيانًا، يصطفّ خلفك الذكور، تمامًا كما في الحج المبارك. والويل ثم الويل لمسهولٍ يحتلّ ذيل الطابور.

ذات مرة، خبَطتُ الأرض قائلا: (إحم) وأرهفت السمع، فلم أسمع حرف الجر اللعين (في)؛ دخلتُ، فوجدت عجوزًا طاعنًا في السن؛ نلت منه تشقيعة إباحية. لكن، والحق يقال، كانت الأمم المتحدة ترعى فينا حق الشرع الحنيف؛ فمراحيض النساء بعيدة جدًا عن مراحيض الرجال.

حاورت صديقي، ذات جلسة تذَكُّر: «علامَ سيحاسبنا الله يوم القيامة، بعد ما لاقيناه من صنوف العذاب، التي أبسطها، أن يهزأ بك المارة، مشيرين إلى سروالك المرقّع؟ يكفينا فضلا أننا قدّمنا التضحيات، كي تظل جذوة الحياة مشتعلة على هذه الأرض».

* «إتّق الله يا رجل، هذا ابتلاء للمؤمن، وليس عذابًا؛ وإذا أحب الله عبدًا ابتلاه».

-«حسنًا، وإذا كان غير مؤمن؟».

* يكون قد تَخوزَق، دنيا وآخرة».

-«هههههه».

* «ليتك تضحك بلا أسنان، يجب عليك أن تبكي، لا أن تضحك».

كنت أجلس بالقرب من كبار السن في المخيم، ينقسمون بعد صلاة العصر إلى حلقات لعب الورق المختلفة. كم كانت فرحتي عظيمة، حين يطلب أحدهم مني أن أشتري له علبة كبريت، أو دفترا لِلفّ التبغ العربي؛ يُشعرني هذا، أنهم راضون عن جلوسي معهم. سمعت منهم قصصًا بطولية، عن جهادهم في فلسطين. كان والدي يُقرُّ واحدة منها، ويُكذّب العشرات. تعلّمت منهم لعب الورق، الشتائم الإباحية، التدخين، الكذب، الخداع وكيفية فَضّ البكارة.

توجّه رشيد نحو المقبرة، وئيد الخطى، تلتف منه الساق بالساق؛ كيف سيودع والديه وإخوته؟ ما إن قال: (سلام عليكم، أنتم السابقون ونحن اللاحقون) حتى قام مئات الموتى، ردوا السلام عليه،

وتجمهروا لوداعه.

عانق أخاه الشهيد، فقال: «أشكرك مرتين؛ لأنك يسّرت لي أمر السفر إلى إسلام آباد، للعمل في مكتب المنظمة؛ ولأنك أقنعتَني، بأن الاستشهاد في سبيل الوطن حياة أبدية. انتابَته غصة مفاجئة: يؤسفني فقط، أن استشهادي لم يكن على يد عدوي. لا تعُد إلى فلسطين إلا رافعًا شارة النصر».

والده ناداه من بعيد، عانقه بحرارة، ونصحه: «العودة تكون تحت ظلال الزنابق، لا تحت إرهاب البنادق». ثم تنهّد بأسى: «أنت قرأت عنهم؛ أنا جرّبت؛ لسوف تعاني».

مضى نحو أمه؛ أجهش بالبكاء؛ مسحَت دموعه؛ عانقَته: «وحدك لا تَعُد؛ أعرفك عنيدًا؛ سلِّم لي على خالتك نعمة، وعلى الجميع. اللّه يرضى عليك، تذكّر موّالي: يمّا مويل الهوا، يمّا موليّا، ضرب الخناجر، ولا حُكم النذل فِيّا».

بصعوبةٍ بالغةٍ جرّ جسده؛ عانق إخوته؛ استجمع الكلام: «أعرف هواجسكم؛ قد درست الأمور كلها، وأعددت لكل إشكال حلا».

اغرورقت عيناه بالدموع؛ شهق عندما صاحوا بصوت واحد: خُذنا معك. ثم عادوا إلى قبورهم.

كاد أن يقتلع فكرة العودة من جذورها، لكنه استدَار راجعًا، وقال: «نداء الوطن أعظم». هكذا يكون رشيد قد أنهى توديع بعلبك.

غَربَل ذكريات الصبا، فوجد تحت الغربال زؤانًا متراكمًا، ودموعًا. حدّق في الغربال، فرأى سِلْكًا أَعوَجَ نافرًا، يُشبه إصبعه الوسطى.

❖ ❖ ❖ ❖

الفصل السادس

انهمر الإيمان على رشيد دفعة واحدة. هو المتحرّر من سلطة التراث؛ تراه اليوم يذبّل عينيه الخاشعتين، وهو يصلي؛ تكاد ذقنه تلامس صدره؛ يتبَكبك في الدعاء والابتهال إلى الله، كي ييسر له الوصول بسلام إلى عين ماهل.

طار من الفرح حين اتصلت به ابنته، وبعثت إليه صورة تأشيرة الدخول إلى الأردن؛ إذًا فالله استجاب دعاءه.

انطلق بسيارته، يودّع أقاربه، وأصدقاءه: «أنا مسافر إلى الأردن، سنستقر هناك».

حضر أحفادُه إلى بيته؛ أحاطوا به؛ صَفّهم طابورًا طويلا؛ قبّلهم قبلات عميقة، مضمّخة بدمع الفراق؛ مسّد شعورهم؛ أغدق عليهم المال كالمعتاد، فابتسموا، وعانقوه.

كاد يعدل عن فكرة السفر، بعد أن شعر بقدسية بقائه بينهم؛ وبأن فراقهم يعادل الموت، لكن نداء الأقصى كان أقدس.

سأل صديقه عن سائق مناسب. قال له: «هل معك حقائب كثيرة؟».

-«أربع شُنط تكاد تنفجر، كلّه جديد بجديد».

* «ليس لك إلا أبو عادل، فلسطيني الأصل، لكنه من القرى السبع. كان والده لاجئًا مثلنا، لمدة طويلة، وحين نال الجنسية اللبنانية، بِحِنكة بالغة ملتوية، صار يتهكّم على مَن ينفخ ذاتَه، ويقول: «طبعُك مثل طبع اللاجئين».

أبو عادل سائق قدير؛ شابٌ أربعينيّ مثقّف، يفهم في كل شيء؛ سيارته مريحة، وربّيحة؛ مِن رَيعها عمّر بناية. هو مثل المنشار، رائحًا يأكل، وراجعًا يأكل؛ تهريبة من هنا، توصيل أمانات من هناك؛ هذا غير أجرة الركاب. قيادته رزينة واعية؛ بجرأته يحسن التخلص عند الحدود، ونقاط التفتيش الكثيرة. لطالما ردد أمامي: «استعينوا على قضاء حوائجكم بالحِكمة، وجادلهم بالتي هي أحسن».

يشحن ربطات خبز كثيرة؛ يُفحِم مُفتّش الجمارك بجملة واحدة (النبي قَبِل الهديّة) فيُذبّل المفتّش عينيه الخاشعتين قائلاً: (عليه أفضل الصلاة والسلام).

حضَر أبو عادل بعد صلاة الفجر؛ سلّم على رشيد، ففتَح عينيه على اتساعهما: «سبحان الله، تشبه زميلي القديم في المعهد الديني، عادل غوراني».

* هو والدي.

-عن جدّ؟ يا إلهي! ما هذه المفاجأة؟ سيكون لنا حديث ممتد، قد لا تكفي الرحلة إلى عمّان لاستيعابه.

ودّع رشيد عائلته وداعًا دامعًا. مسح عينيه وقال: «وعد شرف، سأعمل المستحيل كي أجلبكم إلى عين ماهل».

كانت السيارة تجري إلى الأمام، ورشيد ملتفت إلى الخلف؛ توديع بعلبك خلّف في نفسه جرحًا عميقًا، فارتفع ضغطه، وجفّ حلْقُه؛ كاد أن يلغي فكرة الرحيل نهائيًا، لكن نداء العودة كان أعلى.

تفَهّم أبو عادل امتدادَ صمت رشيد، وحُزنَه البادي، فلم يشأ إزعاجه؛ لكن رغبته في الثرثرة طغَت؛ وجَدَها حلاً لإخراج رشيد من حالته، فقال:

* كنتُ صغيرًا عندما ترَكَنا والدي، بعد افتراقه عن أمّي، فصارت لي الأب والأم معًا؛ أخت الرجال بِحَقّ وحقيق. كنت أسألها عنه، فتجيب إجابات مقتضبة، وكأنها تُخفي معلومات، لا تود البوح بها؛ لكنها أخبرَتني أنه ترك المعهد الديني في بيروت، وفضّل تعلُّم مهنة مُنتِجة يهواها.

-أجل، كان مكتئبًا على الدوام، كارهًا حياته في معهد داخلي، المنامة فيه تشبه قاووش السجن. لطالما أبدى ندمه على إهدار أربع سنوات من عمره، في دراسةٍ لم يقتنع بها. ألم يتواصل معكما أبدًا بعد رحيله؟

* لا. انقطعت أخباره عنا، وعن ذويه، حتى الآن.

-يا لطيف، أعانكم الله، على ما عانيتم.

* أجل. اضطرت والدتي للعمل في إحدى مدارس بيروت، وعشنا عيشة الكفاف.

-سافل، حقير فعلا؛ كنا نمقت سلوكه في المعهد؛ نُضَيّفه مما نشتري قائلين: تفضّل يا (أشعَب) فَيَمد يده، وهو يضحك ضحكة وغْدٍ، وضِيعٍ، استغلالي. آسف جدًا، أن فتحت جروحك القديمة يا أبا عادل.

* (ولا يهمّك؛ أبو شو بلا زُغْرَة؟)

-(قَدْرك ما يصغر). أنا كُنيتي أبو محمود. يمكنك أن تناديني رشيد فقط. الألقاب لا تصنع الرجال؛ العكس هو الصحيح.

* العفو، احترامك واجب عمي الشيخ رشيد. جهّز جوازات السفر؛ وصلنا نقطة حدود المصنع اللبنانية.

أخذ الموظف جواز سفر رشيد، وسأل: «إلى أين؟».

-«إلى عمّان، سنستقر هناك».

ابتسم ابتسامة عريضة. «الأردن أنسب مكان لكم».

تنفس رشيد الصعداء، بعد أن انطلقت السيارة نحو (جديدة يابوس) نقطة الحدود السورية.

الآن يترك رشيد بلدَ اللجوء، بخيره، وشرّه. يريد اللحظة أن يطوي المكان، والزمان معًا. أن ينتزع من ذهنه هذه الحدود، وما كان يواجهه عند عبورها من منغّصات؛ هدفُه أن يصل إلى عين ماهل، وذاكرته صفحة بيضاء، كطفل وليد، يبدأ الحياة من جديد. ليس هناك وسيلة لتحقيق ذلك، إلا سرد وقائع تلك المنغّصات.

راح يقصّ على أبي عادل، ما حدث له عند هذه

الحدود قبل ٤٧ عامًا:

-آنذاك، كنتُ ووالدك عادل، في الصف الإعدادي الثالث، في المعهد الديني ببيروت. نظام المعهد يقضي بالتقدم لنيل شهادة الكفاءة السورية، أي الشهادة الإعدادية. كان مقررنا الديني دزينةً من المواد، ومقررنا العلمي ست مواد. خططتُ ببراعة، ورحت أدرس ليل نهار، كي أنجح، وأغادر المعهد الديني، لإكمال دراستي العلمية، التي كنت بارعًا فيها؛ بعيدًا عن المقررات الدينية، ومشايخ الطبيخ. حان موعد الامتحان الرسمي، وأحضر المدير سيارتين لنقلنا إلى دمشق.

عند الحدود اللبنانية هنا ــ والتي لم تتغير. اللّه وكيلك. هِيَ هِيَ - ختَم الموظف لزملائي اللبنانيين كروت المغادرة. جاء دوري؛ دقّق في الكرت مليًّا، ثم رماه لي ممتعضا: «الجنسية فلسطيني؟!! غيِّر الكرت، واكتب: لاجئ فلسطيني في لبنان». ثم سألني: «أين التصريح؟».

-أيّ تصريح؟

صرخ في وجهي: «أنت لاجئ فلسطيني يلزمك تصريح؛ لا تستطيع الدخول إلى سوريا دون تصريح؛ وهذا يحتاج

أيامًا وأيامًا حتى يصدر؛ وقد يأتي الجواب بالرفض».

تجمّدت مكاني، وأنا أرى زملائي يستقلّون السيارة جَذِلين. كنت أتمنى أن أسمع منهم كلمة مواساة واحدة، واحدة فقط.

تَقدّم عادل مُبتسمًا، طبطب على كتفي: «ضاع تعبُك. كنت أعلم أنك بحاجة إلى التصريح».

-لماذا لم تنبّهني؟

ابتسم بخُبث ظاهر: «المتفوّق في الدراسة والذكاء، لا يحتاج تنبيهًا».

قبل أن تنطلق السيارتان، طلبتُ من الناظر، المرافق للطلاب عنوان إقامتهم في دمشق؛ لعل المستحيل يصبح ممكنًا، وألحَق بهم.

هل يمكنك تخيّل ابن خمسة عشر عامًا، متروكًا عند الحدود؟

اتصلتُ هاتفيًا بالمدير؛ طمأنني بأنه سيخبر الجهة العليا، المشرفة على المعهد؛ طلب مني رقم هاتف المقهى، الذي أتحدث منه؛ وأن أبقى بقربه.

بعد ساعة، دخل ضابط إلى المقهى، وسأل: «مَن اسمه

رشيد هنا؟». قلت: أنا. قال: «تيسّر الأمر؛ يمكنك المغادرة إلى دمشق بدون التصريح. مَسنودٌ والله؛ واصلٌ لوزير الداخلية و تتمسكن؟!» .

عند نقطة الحدود السورية، ملأتُ كرتَ الدخول، بالمعلومات المطلوبة، وقدّمته مع الهوية. نظر الموظف مستغربًا: «أين التصريح؟».

-«أيّ تصريح؟».

صرخ أيضًا بعصبية واضحة: «أنت فلسطيني، ألا تعلم أنه يلزمك تصريح؟ ثم تعال إلى هنا؛ كيف غادرت لبنان بدون تصريح؟ أنت داخلٌ بطريقة غير شرعية».

شرحت له، ببراءة الصبيان، ما حصل بالضبط.

* «لا يعنيني هذا الكلام. بدون تصريح لن تدخل».

رُحت أستعطفه، قائلا: «عمّي، كرمى لله أدخلوني؛ عندي امتحان الكفاءة غدًا صباحًا؛ لا تضيعوا تعبي؛ طوال السنة وأنا أدرس، ليل نهار».

رق قلبه لحظة: «عمّو، أنت تطلب المستحيل. عِقابي أليم إن خالفت القانون، وأدخلتك بدون تصريح».

انفعلتُ عندما أيقنت أنني سأُعاد إلى بيروت، وقلت

بصوت حادّ: «ولماذا تَنصبون قوس ترحيب، يُمجّد الأمة العربية الواحدة؟».

خرج إليّ غاضبًا، قرص أذني بشدة: «واللّه العظيم، لولا أنك ولد صغير، لكنت علّمتك درسًا لن تنساه. أعظم مساعدة أقدمها إليك، أن تعود من حيث أتيت».

رجعت إلى بيروت، وشرحت للمدير ما حصل. فكّر لحظة، ثم قال: «سنذهب إلى مديرية الأمن العام، لعلنا نحصل على التصريح».

المهم بلا طول سيرة، وجدنا المناوب هناك؛ اتصل بمدير الأمن العام، ثم جهّز المعاملة، وطلب منا الذهاب إلى وزارة الدفاع؛ فمنحوني التصريح.

وصلتُ دمشق، تمام التاسعة مساء، إلى حيث زملائي؛ قدّمنا الامتحان على مدى أسبوع، وعدنا إلى بيروت. ويوم صدرَت النتيجة، كنت وحدي الناجح، بين أحد عشر تلميذًا.

طِرت من الفرح، عانقَتني أمي عناقًا حارًا: «تعبتَ، ولاقيت. مبروك». انتظرت رجوع والدي من العمل كي أبشّره؛ لكنه قال بوَجه جليدي: «طيّب».

تجرأت، قلت له: «يابا، دعني أترك المعهد الديني، وأكمل تعليمي، مثل رفاقي».

فقال: «مذ رأيتك تدرس ليل نهار، عرفت مخططك.

أمامك خياران: إما الأزهر، أو أن تتعلم صَنعَة، ولا تطمع بغيرهما».

لم أخبره أنني شبه منبوذ في المعهد، وأن عادل يؤلّب الطلاب عليّ. المدير لاحظ ذلك، لكنه لم يُحرّك ساكنًا؛ فعَزلتُ نفسي في المكتبة، ونلت صحبة الكتب؛ أضحكُ مع عبد القادر المازني؛ وأدمع مع روايات المنفلوطي؛ وأتوق لشرب الخمر مع مؤلفات جبران خليل جبران. وهذا ماحصل، يا أبا عادل.

* قصة مؤثرة عمي الشيخ. حسنًا، عندي سؤال: لماذا كرهتَ المعهد الديني؟ أنا أسمع أن الشيخ يصبح مليونيرًا: بيوت، نساء، سيارات، ولائم بالأفراح وبالأتراح.

-كيف يصبح مليونيرًا؟ هذا هو السؤال الجوهري. كلنا نحب التملك، ولا نشبع. كلما حصّلتَ أكثر، طلبتَ أكثر. مَن منا لا يحب النساء؟ ما حُبّب إليّ من هذه

الدنيا إلاّهُنّ. واحدة لا تكفي، ولا حتى أربع، ولا مئة. ترى عيون أحدنا تدور مع الجميلات حيث يدُرن، مع أن زوجته قد تكون أجمل منهن. الإنسان مَلول، سرعان ما يعتاد على ما في يده، مفطور على حب التغيير في كل شيء: الزوجة، الملبس، المأكل، السيارة، المسكن. المرأة كذلك وأكثر، ولكن الدِين منَعها من أن تنكح ما طاب لها من الرجال، حتى في الجنة، مع أنها هناك لن تحيض، ولن تبيض.

لا أكره أحدًا، إلا ذاك الذي يأكل من كدّ غيره؛ إذا ضحك اهتزّ كرشه، كيف لا، وقد ضمن الدنيا والآخرة؟! يتشاوف على الناس بما حصّله من علم مقدّس، فيصبح مقدسًا هو الآخر، سلطان زمانه، يحب أن يُخدم ولا يَخدم. المسيح غسل أقدام تلاميذه وقبّلها، فهل يقتدي به سماحته؟ إذا خطب استرسل، ولا يصمت إلا في حالتي النوم والموت. يشرح المشروح، يكرر المكرر، يُجَوّد الحروف، حتى وهو يساوم بائع البطيخ. لو وقف الأمر عند هذا، لهانت المسألة. تراه يهزأ بما لا يروق له من فكرٍ مخالِف. لا يَحترم إلا ما لقنوه إياه. تابع حوارًا معه،

وستفاجأ بعصبيته المفرطة، وصوته المزلزل، وخروجه غاضبًا من المقابلة، أيةِ مقابلة، أتدري لماذا؟ لأنه يعتبر أن الرأي المخالف يمسّ فِكرَه المقدس الأصحّ؛ لا يزعزعه فقط، بل ينقضه ويهدمه. يَعتبِر رأيه الحقيقة المطلقة الوحيدة، المهيمنة على ما عداها.

الدين بسيط ويُسر، ولا يحتاج إلى رجال الدين. الدين بحاجة إلى تطبيق مبادئه الأخلاقية، في علاقة أفقية بين الناس. أما الإيمان والعبادات فهي لله، في علاقة عمودية بين العابد والمعبود.

* عذرًا على المقاطعة، عمي الشيخ، وصلنا نقطة الحدود السورية، سنكمل فيما بعد.

الفصل السابع

فتح أبوعادل صندوق السيارة أمام موظف الجمارك، فصَفَر عجبًا واستغرابًا: «أربع شُنط؟ اِفتح افتح، كي نرى ما تشحنون، بضائع كلها جديدة؛ يجب ترسيمها جمركيا».

نزل السائق، مازَحَه، صافَحَه مصافحة تسهيل أمور اضطرارية؛ هكذا أفتى أبو عادل لنفسه، وهكذا استفتى رشيد قلبَه، فصار راشِيًا محترفًا، في حالات متكررة. هو لا يطيق الانتظار، ويعجب: كيف سيتحمل البشر الانتظارَ، في يوم حساب أخروي مقداره خمسون ألف سنة، عرايا، بلا طعام، ولا شراب، ولا تواليت؟ حتى في جامعة الأزهر، صافَح الفَرّاش مصافحةً ملغومة، وهمَس في أُذنه، من أجل دخول امتحان القرآن الشفهي

قبل زملائه.

يُدلّع هذه المصافحة (إكرامية/فنجان قهوة) فلطالما ردّد: «المثالية في مجتمع فاسد غباءٌ وهَبَل (إذا جنَ رَبعك، عقلك شو بفيد؟)».

أمام شباك ختم الجوازات، سُئِل رشيد: «أين ستنزل بالشام؟».

-لن نقيم في الشام، متّجهون نحو الأردن، سنستقر هناك.

* تمام تمام، الأردن يعج بالفلسطينيين، ولن يَشرَق بشخصين».

انطلقت السيارة بين الهضاب، وسط طمأنينة غمرَت نفسه، فقال لأبي عادل: «أنظر هذا هو المعسكر الذي تدرّبت فيه أيام الفدائية. ذكريات عمرها ستة وأربعون عامًا:

-عام تسعة وستين، من القرن الماضي، كنت في السنة الرابعة في المعهد الديني، وبقي لي عام واحد حتى أتخرّج، وألتِحق بجامعة الأزهر؛ يومها دخلَت الثورةُ الفلسطينية إلى لبنان. صرت أرى أترابي يتدربون في

المخيم، ذكورًا وإناثًا، يقفزون فوق النار، يُنَفّذون السقطة الهوائية؛ احتقرتُ نفسي إذ لم أكن معهم فدائيًا. وجدتُها فرصة سانحة، كي أتخلّصَ من المعهد الديني، وأُصبحَ مُجاهدًا، يناضل في سبيل الوطن والمقدسات. أخبرتُ عادل بخطوتي الجريئة، فقفز فاتحًا ذراعيه: «وأنا سأفِرُّ معك. المشيَخة تُطعم خبزًا؛ لكنني أطمع في ما هو أعظم من الخبز بكثير».

كذبتُ على المدير، اختلقت عذرًا مُقنعًا للغياب، لمدة أسبوع، ولم أنسَ إرسال رسالة إلى والدي، أخبره فيها بأنني [هجرتُ المعهد وصرت فدائيًا في مكان ما. إن العِجل الحنيذ الذي نذرتَه لوجه الله حين تراني خطيبًا، على المنبر يوم الجمعة، لن يُذبح].

عادل فَعل مثلما فعلتُ. بقينا نتدرب هنا ثلاثة أشهر، ولكن قائد المعسكر استغنى عنا، وعن عدد كبير من المتدرّبين. كان سبب طردنا جوهريًا جدًا [خلل واضح في الانتماء القومي].

ظهر ذلك بشكل جليٍّ، خلال محاضرة تثقيفية. كان المحاضِر غاضبًا (يشُدّ على طيزو) وهو يُعدّد

إنجازات الأمّة، ويهدد الإمبريالية والرجعية؛ بينما كنا نحن نتثاءب، ثم نبتسم ابتساماتٍ تنُمّ عن شعور قومي مُقَلقَز، متزعزع.

اسودّت الدنيا بوجهي، أصبحت الآن مُحطّمًا تمامًا، خسرتُ فرصة السفر إلى روسيا، للتدرب على سلاح الهندسة، وظننت أنني خسرت أربع سنوات من عمري، بسبب تغيُّبي عن الدراسة. إلا أن المدير كان رحيمًا؛ قدّر وطنيّتي، التي دفعَتني إلى هذا التصرف، فأبقاني.

لكن (عادل) وجدها فرصة ذهبية للانعتاق من المعهد، فطلّقه طلاقًا بائنًا.

كِدت أجنّ، حين رأيته يتراقص مُصفّرًا، وهو يجهز حقيبته، تاركًا المعهد، منطلقًا إلى حياة جديدة، يبدأها من الصفر، حياة لا يعرف عنها شيئًا، ولكنه يُحبها، وسيقتنع بها، مهما حملَت من شقاء وعذاب؛ فالحرية في اتخاذ القرار أسعد اللَذّات.

هل أقول إنني حسدتُه على جرأته؟

أجل، حسدته. قررت النسج على منواله مهما كان الثمن.

كان أمامي خيار واحد فقط، أن أنضمّ من جديد إلى تنظيم فدائي مختلف. الدافع هذه المرّة ليس وطنيًا فقط، بل طمعًا بالمأوى والراتب الشهري أيضًا؛ فوالدي حتمًا سيطردني من البيت، لأنني حطّمت أمَله بلبس الجُبّة والعمامة؛ وأفشلتُ تحقيق رؤياه، التي فسّرها له الشيخ الجليل، في مقام الخضر بحيفا.

حتمًا، التنظيم الفدائي هو الحل. هكذا قررتُ.

ودّعت عادل وهززته من كتفه، مشدّدًا التأكيد عليه: «اِحفظ السرّ الذي بيننا».

أبو عادل، أرجو أن تتوقف هنا.

زوجتي معتادة على التّبضّع من هذه الخيمة التي على الطريق؛ عسل (الديماس) الجردي يناديها. ابنتي في الأردن تعشق العسل.

* حسنًا.

-في الحقيقة، يا أبا عادل، أنني طلبتُ منك التوقف، كي أُطلعك على السّر، بعيدًا عن سمع زوجتي؛ لم أخبرها من قبل عن قصة حبي الأول والوحيد. والدك كان شخصية من شخوصها.

وقعتُ في شراك الحب، يوم كنت ألعب كرة القدم. صدَمَني عادل، وقعت أرضًا وغبت عن الوعي، وحين صحوت، وجدت ملاكًا فوق رأسي، فتاة تبتسم، وتضمّد الجراح.

شَفاني جمالها، وعذوبة بسمتها؛ تمنيت لحظتها أن تطول فترة الإسعاف. فتاة ماهرةٌ، رغم صغر سنّها، تتقن لفّ الشاش ولغة العيون.

اشمأزّ عادل من نظرتي، وبَسمَتِها. تركني مُمَدّدًا على الأرض، وانطلق يلعب مع الأولاد.

هَممتُ بالرجوع إلى البيت، فَأوقَفَني عادل: «أسعَفَتك أيقونةُ الحي هذه المرّة؛ ربما لن يُسعفك أحد، إن عاودت اللعب معنا هنا. كرة القدم لعبة الرجال؛ لا مكان فيها لنعنوع يتدحرج من أبسط دَفعة. مكانك بين الكتب العفِنة مثلك، بَحلِق فيها، لعلك تُسعِد البشرية بِكشفِك السر الأعظم، بدل الحملَقَة إلى بنت الجيران. سأقلع عينك إن فعلتَها مرة أخرى».

نظرتُ إليه بقرف من أعلى إلى أسفل، فاتحًا ما بين السبابة والإبهام: «حجمك هكذا».

ماذا تتوقع أمام مشهد تَحَدٍ كهذا، يا أبا عادل؟

* أن ينقضّ، ويُضاعِف لك الجِراح!!

-فَغَر جفنيه، كزّ على أسنانه، جمَع قبضة كفّه، ثم انسحَب.

عدت إلى البيت مُتحاملا على جراحي، أمسكت بالقلم، وكتبت: [عزيزتي: لا كلمات تعبر عن شكري. أنتِ الإنسانية والرقة، وكفى. التوقيع: رشيد].

طويتُ الورقة على بتَلَة جوري برتقالية، فاكتملت الرسالة.

صبيحة اليوم التالي انتظرتُها في مكان آمِن، ثم تبعتُها من بعيد كي أتعرّف على مَدرستها.

حين أصبحَت وحيدة عند المنعطف، ناديتُها، فعرِفَتني من ربطة الشاش:

* أهلا، تفضّل، ماذا تريد؟

احمرّ وجهي خجلا، وتباطأَت في فمي الكلمات:

-يزيد فضلِك، هذه رسالة شكرٍ مني. إذا رغبتِ في استلامها، فهذا أمَلي، وإن رددت عليها، صرت أسعدَ البشر. غدًا أنتظِركِ في هذا الموعد.

بِنُعومة تناولَت الرسالة، وهي تتلّفت بِحَذَر.

في اليوم التالي اجتاحني الفرح. كانت ذكية، مشت أمامي، ورمت الرسالة أرضًا. فتحتُها وقرأت: «عزيزي رشيد: لا شكر على واجب. كُن بخير».

هل تعلم يا أبا عادل، ما معنى أن تُراسلك أنثى في ذلك الزمن؟

زلزلَتني هذه الرسالة. أتدري ما تعنيهِ لشابٍ ذاق شتّى صنوف العذاب، ولمّا يكمل السادسة عشرة من عمره؟!

رسالتي الثانية كانت: [عزيزتي: أنتِ كل النساء].

توالت الردود، وازداد عدد الكلمات. كنت أنتظر يوم رجوعي إلى بعلبك بِصَبرٍ اسميتُه (صبر رشيد). أَشرحُ لها معاناتي في المعهد، ومع عناد أب متسلط، معتدّ برأيه، وكانت تُبَلسم قلبي بجرعات الأمل.

بعدها، اهتديت إلى فكرة جديدة، فتحت لها صندوق بريد باسمي في بعلبك، ولي مثله في بيروت، فَسهُل الأمر.

صرت حيًا. الحب للإنسان خَلقٌ ثانٍ.

لم أقل لها: أحبُك. ولم تقُل.

الحب لا يقال، الحب يقتله المقال.

سنة كاملة، ونحن نتبادل الرسائل المضمّخة بعطر الحب العذري.

ظهرَت حِكمتها، التي سدّدت مسار حياتي، في رسالة جاء فيها:

«الغالي أبدًا رشيد: ذكرتَ في رسالتك أنك ستترك المعهد، وتلتحق بتنظيم فدائي مُختلِف. ستُحقق ذاتك، وتتحرر من الدراسة الدينية؛ ولكنك ستخسر كل شيء، والدك وأهلك. لا تفعل، ويظل القرار لك».

جرعة من الرجاء الحبيب، جعلتني أُقرّر إكمال الدراسة في المعهد، فكتبتُ لها أولى قصائدي المكسّرة وزنًا وقافية:

(يا أنتِ.. أحبك أنت.. لأنك أنتِ

لأني حين طلبت النجاة.. وجدتك أنت

وأني حين أردت الحياة.. عشقتك أنت.

مَن أنت حتى تخلقيني من جديد؟

من أنت حتى تسلبي حريتي

وتستبيحي ساعتي

وتشكّلي قلبي وعقلي من جديد؟

انا الطفل الوليد، أنا الطفل السعيد.

قبل أن ألقاك، كنتُ شيئًا ساكنًا

لكنني، وبعد أن قابَلتُك، يا أنتِ، صرت أنا).

ردت تقول: «الحب ليس أعمى.. الآن أبصرتُ».

تطور الحب، فصار لقاءً يتبعه لقاء، وأحلامَ مستقبل وردي يجمع الحبيبين. وهكذا بدأت قصة حب (مجنون X) يا أبا عادل.

* ولماذا X ؟ هل تخجل من ذكر اسمها؟

-ليس خجلا، ولكن حفاظًا على سمعة حبيبتي. بقية القصة أتلوها عليك في استراحة ثانية.

* لا، لا، أرجوك أكملها الآن.

-لا، فيما بعد، أُنظُر إلى زوجتي كيف تتمايل بين أكياس الهدايا؛ هيا بنا نمضي في رحلة العودة. فلسطين تناديني. أسرِع في القيادة، لو سمحت.

❖ ❖ ❖ ❖

الفصل الثامن

حب الثرثرة طبعٌ في العجائز، فما إن ينطح أحدهم عتبة الستّين، حتى ينفتح خزان الذاكرة، وتنساب الحكايات.

كل إنسان يفخر بإنجازاته، مهما كان عمله. يصبح فيلسوفًا، يُتخم أذنيك بالحِكم والأمثال الشعبية، هذا في الأيام العادية، فكيف وهو يعبر نقطة حدود عربية؟ عندها يَزفُر القلقَ، يسترخي، يشعل سيجارة، ويروح يكشف كنز المعلومات.

باح رشيد للسائق بأسماء التنظيمات التي انتمى إليها تباعًا، وكان يحمل اسمًا مستعارًا على الدوام. وذكر بالتفصيل أسباب ترك كل منها:

الشللية، المحسوبية، حب الزعامة، سرقة الموازنات

الإدارية، تسجيل أسماء وهمية في كشوفات الرواتب، الصراع بين أجنحة التنظيم الواحد، المعارك مع المنظمات الشقيقة، الاغتيالات المتبادلة، فيضحك العدو حتى تبدو نواجذه.

أقنع رشيد نفسَه أن أبا عادل أمينٌ. صدرُه مدفن أسرار، عميقُ الأغوار. منظره يوحي بذلك، متوسط الطول، ممتلئ الجسم، هادئ الوجنات، باسم القسمات، مُندلق الكرش، يُصغي باهتمام، يُذكّرك أين وصلت في الحديث. هو السَّلة المناسبة لاحتواء ذكريات اللجوء.

دخلوا دمشق، فقال رشيد: «لا بد من توديع ثلاثة أماكن، في هذه العاصمة العريقة:

الجامع الأموي ـ الذي كان كنيسة ـ تشمّ فيه عبق التاريخ المجيد، وإن كان يقطر دمًا.

ومقام محي الدين بن عربي، عالم عرفاني، أَعتبره مثلي الأعلى.

ومقام الخضر في جرمانا.

* «مولانا، ليش نسيت مقام السيدة زينب، عليها السلام؟ هي مقدسة عند جميع المذاهب».

تدخّلت أم محمود لفضّ التلاسن، قبل أن يتحول إلى نقاش مذهبي بيزنطي: «دعونا نكمل الرحلة، لا داعي لزيارة أيٍ منها، بدأتُ أشعر بالتعب».

التوقف في منطقة (الكسوة) أول الطريق إلى الأردن سُنّة مؤكدة؛ يوهمك السائق أنه مضطر لدخول المرحاض. تنظر زوجتك إلى ما تعرضه المحلات من بضائع وحلويات، تتغنّج في خِلقَتك: «إنزل كي نتفرّج».

عادت أم محمود، تجُرّ نفسها جرًا، تحت ثقل الشنطة الخامسة، وعاد أبو عادل، مُرتشِيًا بعُلبة حلوى، ثم فَتح الحديث:

* «عمي أبا محمود، هل أكملت الدراسة بمصر؟» .

-طبعًا، ونلت الليسانس، بتقدير جيد جدًا، مع مرتبة الشرف الأولى.

* هذا رائع، لكن ولا مرة، رأيت العمامة على رأسك.

-ومَن قال إن رجل الدين يجب أن يتميّز بلباسه عن الناس؟ عمائم الصحابة كانت تشبه عمائم كفار قريش!

كنت قد قررت إتمام الدراسات العليا في الأزهر لنيل

الدكتوراه؛ ولكن عميد الكلية منعني من ذلك، بعد أن قدّمت في السنة الرابعة بحثًا مدعمًا بالأدلة الدامغة، أنكرتُ فيه ما يُسمَى في علم العقيدة بالسمعيات، مثل عذاب القبر، وأعور الدجال، ونزول المسيح في آخر الزمان.

يومها تكارم العميد علَيّ: «لن أحرمك من الليسانس؛ وأعظم مساعدة أقدمها إليك أن تعود من حيث أتيت».

عدت إلى بيروت، كانت سماؤها دخانًا أسوَد كثيفًا، تنبعث منه رائحة شواء لحوم بشرية. كانت الحرب الأهلية قد استعرت، قبل شهور قليلة، فأسرعت في العودة إلى بعلبك.

سعدت بلقاء الأهل، سلّمت الشهادة لوالدي، وقلت له «بلّها واشرب ميِّتها، ما راح اشتغل شيخ». اسوَدّ وجهه، انتفخت أوداجه وقال: «لطيزي ما اشتغلت».

لم أنس الشيخ الجليل، الذي دلق الماء على وجهي، قُرب أطلال مسجد الشيخ عبد الله، بعد أن تعثرتُ وغبت عن الوعي، وأنا صبي.

يومها، بشّرني بأنني أنا الذي سأكشف السر

الأعظم، بعد التخرّج. ثم اختفى فجأة.

* ماذا تقول؟! هل حدث هذا فعلا!؟

-نعم، حدث فعلا، وأنا بكامل قواي العقلية.

* غريب حقًا؛ لكنني أُصَدّقك، فلقد سمعت وقرأتُ عن حوادث مشابهة.

-يسعدني جدًا تصديقك لي؛ شكرًا جزيلا عزيزي الحبيب أبو عادل الصِدّيق.

المهم، قررت زيارة أطلال المسجد، توضأتُ، وصعدت التلة واثقًا. كنت قد بلغت سن الرشد، عضلات قوية، وقلب لا يعرف الخوف. وقفتُ تمامًا حيث ظهر لي قبل عشر سنوات، فلم يظهر أحد. قرأتُ آية الكرسي، فلم يظهر. قرأت سورة يس فَلم يظهر. قفلت عائدًا، فانبثق الشيخ فجأة من خلف إحدى الصخور.

توقّف قلبي للحظة، شهقتُ، فابتسم: «جئتَ تخبرني بأنك تخرّجت، أليس كذلك؟».

-أجل، صحيح.

فقال: «مبارك. شهادة الأزهر جواز سفر، للفوز بفرصة عمل. ما حصّلته من علوم دينية مهمٌ كأرضية

ضرورية، لكشف السر الأعظم. لكن الأرضية - وحدها - لا تُشكّل بناءً. السر الأعظم صرحٌ يخلب الألباب، تُعمّره بالبحث والدراسة والمطالعة، لا من كتب أزهرية صفراء، عفا عليها الزمن. اقرأ تعرِف، ولا تتّبع سنن الأولين. سأكون إلى جانبك فلا تقلق».

* كنتَ ترى الشيخ الجليل لوحدك، أليس كذلك؟

-نعم، صحيح. إياك أن تظن إني أتوهّم توهُّمًا.

* لا يا أستاذ، سلامة عقلك؛ لكن من الضروري جدًا، أن نزور طبيبًا نفسيًا، ولو مرّة بالعمر. لطالما أكّدتُ، أن الطبيب النفسي، ومهندس الطاقة الذرّية، يعيشان في بلادنا ويموتان في عوَز وفاقة.

-لا يا عزيزي، مع احترامي لك، أنا لست بحاجة إلى طبيب نفسي أبدًا. هكذا أَهَنتني، و أخطأتَ بحقّي!

* آسف جدًا، لا أقصد حضرتك تحديدًا. أنت تعلم أنّ النفس تمرض كما الجسد، ومعظم أمراض الجسد سببها المباشر نفسي. المجتمعات المرفَّهة تغزوها الأمراض النفسية، فماذا عنا نحن؟ وفهمك كفاية.

-حصل خير، لا عليك.

المهم، بعد التخرج بشهرين قرأت في الجريدة إعلانًا، تطلب فيه السفارة الليبية مدرّسين، من بينهم حملة الشهادات الدينية، وتشترط تصديق الشهادة من وزارة الخارجية، ومن السفارة الليبية. كانت معارك الحرب الأهلية على أشُدها في بيروت: حريق الأسواق التجارية، قصف عشوائي، ذبح على الهوية، سمل عيون، قطع آذان، مراكز لحفظ الأعضاء البشرية، أثرياء حرب تلمع أسماؤهم فجأة، تجار سلاح؛ كانت السلطة حريصة على سرية المعلومات، تنشر الحرف الأول من اسم أحدهم، واسم عائلته، مثلا: ر. ح/ م. س../ كان أنشطهم المدعو (ع. غ). لطالما تكرّر اسمه في وسائل الإعلام، دون نشر صورته، حفاظًا على سمعته الغالية.

كل ذلك دفَعني إلى المغامرة، لتصديق الشهادة من وزارة الخارجية بالأشرفية، معقل الطرف المناوئ للمنظمات، وترسانة أسلحته.

والدتي رفضت إقدامي على مهمة مستحيلة، تُشبه الانتحار، نسبة الموت فيها مئة بالمئة.

لكن والدي قال بثقة: «دعيه يذهب، لن يموت قبل أن

يكشف السر الأعظم».

عبثًا انتظرتُ ساعة كاملة، كي يمر تاكسي يتّجه إلى الوزارة، ثم توقف أحدهم. ركبت بجانبه فسألني«إنتا شو إسمو؟». قلت: رشيد. قال: رشيد شو؟ أخبرته باسم العائلة، وكأن إجابتي لم تشفِ غليله، فقلت: «أتريد أن تكشف مذهبي الديني؟». ضحك وقال: «حربوق إنتي، كتير زكية، ما تخافي، أنا أرمني، محايد مش مع حدَن، أنا إسمي أراميان».

قلت: «وجهي يَدُلّك على مذهبي». قال: «فهمت». ثم أضفتُ: «أنت تحمل الجنسية اللبنانية، منذ مدة طويلة جدًا، وما زلت غير قادر على التحدث باللهجة المحكية حتى؛ بينما نحن عرب أقحاح، ولم ننل أدنى حقوق مدنية هنا. نحن نرفض التوطين شكلا وموضوعًا، ومع ذلك، فلا حقوق على الإطلاق؛ أليس هذا مثيرًا للاستغراب؟».

اشمأز قليلا: «الحق عليكم، كان لازم تموتوا بأرضكن، وما تتركوها».

ضحكتُ لحظتها: «ولماذا تركتم أرمينيا، ولم تموتوا فيها؟».

نفض كفّه: «بلا الحكي بالسياسة أحسن، نحنا وإنتو مظلومين».

قلت: «كلانا مظلوم؛ ولكنكم مرفهون في بلادنا جميعها، وحيثما وُجدتم؛ أما نحن، فكما تسمع وترى».

هز رأسه مرارًا، علامة الموافقة.

سألتُه: «هل هناك حواجز للكتائب في طريقنا؟».

قال، إنه جاء قبل قليل من الأشرفية، لم يشاهد أي حاجز؛ ولكن لا أحد يعلم، متى ينبثق فجأة حاجز طيّار. ثم ناوَلني صليبًا، وطلب مني أن أعلّقه في عنقي؛ وإذا ما واجَهَنا حاجز مباغت، فعليّ أن أكون أصمّ أبكم، وهو سيتصرف.

قلت: أعوذ بالله مستحيل. ووضعت السلسلة على التابلوه أمامي.

وحَدث ما كنت أخشاه، حاجز طيّار مسلّح بعد المنعطف. كان أمامنا سيارتان.

هممت بالنزول، فمنَعني السائق. تَناول الصليب وعلّقه في رقبتي.

تجمدت الدماء في عروقي، تشنّجت رقبتي، وزاغ مني

البصر.

* «من وين الشب؟». سَأل المقاتل.

فأجابه السائق، وهو يشير إلى صدري: «أكيد من المنطقة».

أشار المقاتل بكفّه: «روح». فعادت إليّ الروح.

شكرت السائق كثيرًا، وأعدت الصليب إليه، بعد وصولنا إلى وزارة الخارجية.

صدّقت الشهادة سريعًا، إذ لم يكن أحدٌ غيري. ما إن خرجت، حتى لعلع الرصاص والقذائف في اشتباك مفاجئ، بين الشرقية والغربية من بيروت؛ وبلمح البصر، خلا الشارع من الحياة. رحت أجري هنا وهناك، على غير هدى. أدعو الله، أن يدلّني على الطريق المؤدي إلى المنطقة الغربية. هدأت المعركة، تماهلتُ في السير، انعطفت يمينًا، فوجدت نفسي وجهًا لوجه، أمام بناية يزينها علَم شاسع، تتوسطه شجرة أرز، وتحتها ثلاث كلمات: الله، الوطن، العائلة. حزب الكتائب اللبنانية.

ثلاثة مقاتلين مدجّجين بالسلاح كانوا أمام مدخل البناية، ينظرون إلى شاب ملتح، يطفح نور الإيمان في

وجهه ـ هكذا كانت جارتنا الحَجّة تُقرر، كلما سلّمتُ عليها ـ اللحظة تمنّيت لو كنت معقوف الحاجبين إلى أعلى، شيطاني الملامح، مثل أبي جهل، في فيلم الرسالة، فماذا أفعل؟

إن رجعتُ شكّوا في أمري، وإن مشيت على الرصيف المقابل، شكّوا أكثر. لم يعد من التقدم بدٌّ، ولا أدري مَن أنطَقني: «بونجور شباب».

* بونجور، أهلا، تفضّل.

-«ميرسي» قُلتها، وتحولتُ إلى أذن ضخمة، تتوقع منهم سؤالاً، يعقبه تفتيش، فاقتياد إلى الإعدام. لكن اللّه سلّم.

سمعت أحدهم يسأل رفيقه: «من وين هيدا؟». فأجابه بثقة: «أكيد من هون، من المنطقة».

انعطفت يسارًا، فوجدت الشارع الرئيسي. أوقفت تاكسي، أوصلني إلى السفارة الليبية.

أبو عادل، نسيتُ أن أخبرك، أني اتصلت هاتفيًا بأمي، وطمأنتها بأنني صدّقت الشهادة، ونجوت من الموت.

* لا داعي لأن تخبرني، عرفت وحدي، هذه معلومة

بَدَهية، لا تحتاج تفصيلا؛ ولكنني أعذرك، فهذا طبع رجال الدين. تفضّل أكمِل.

وقفتُ أمام موظف الاستعلامات بالسفارة الليبية، وببسمة عريضة، طرحت السلام الطويل، فردّ التحية ببرود لافت: «أهلا، شِن تِبّي؟».

-هذا طلبي كاملا، كما حددتم في إعلان الجريدة.

* آسفون يا أستاذ، اللجنة المكلفة بقبول الطلبات، سافرت أمس إلى ليبيا.

-«أتدري ما حل بي قبل ساعة؟». ورحت أسرد على مسمعه رحلة موت لم يكتمل.

قلَب شفته السفلى: «يا وِدّي، اللّه غالب، ما عندي ما ندير لك».

وهذه، يا أبا عادل، باختصار، قصتي التي نشرتها فيما بعد، تحت عنوان (في سبيل الختم).

* واللّه، إنك مغامر. معقول، يا شيخ، أن تُعرّض نفسك للموت، كُرمى لتصديق الشهادة، والفوز بوظيفة.

-يا أبا عادل، الموت في سبيل الوظيفة، يعادل العيش بلا وظيفة، يعادل الذل، وأنت شاب متخرج في الجامعة،

تتسكع بين المقاهي، عاطلاً عن العمل.

لم أُطق البقاء في البيت، قررت السفر، ولو إلى جهنم الحمراء؛ وإن تعذّر، فسأعمل في أية مهنة، ولو كانت فتح المجارير.

الحرب الأهلية بشعة، تختلط فيها التحالفات وتتغير، فلا تدري من أين تأتيك الرصاصة القاتلة. بدأَت بين الكتائب والفلسطينيين، ثم تطورت، فصارت بين المسلمين والمسيحيين. بعد الاجتياح، صارت بين المسلمين والمسلمين، ثم انتهت بين المسيحيين والمسيحيين.

أعلنت ليبيا السماح لنا بالدخول بدون تأشيرة. استدنت تكاليف السفر. حملت حقيبة كتف، ورحت أنتظر حافلة تنطلق يوميًا من بعلبك إلى دمشق؛ لأن مطار بيروت كان مشلولا.

توقفَت الحافلة كي أصعد، فسمعت أخي ينادي من بعيد: «لا تركب».

-خير، ما الأمر؟

* «اتصل مدير مدرسة أبناء الشهداء، يطلبك كي تُدرّس فيها».

كانت تجربة مريرة؛ لكنها ككل التجارب، تطلعك على نماذج بشرية متنوعة. هي مدرسةٌ؛ لكنها نموذج مصغّر، لما يحدث داخل التنظيمات.

* عمي رشيد، ما رأيك في استراحة بسيطة، كي نتناول فنجان قهوة، وندخن خارج السيارة؟

-حسنًا، وبقُصّ إيدي، إذا ما كنت حابب تسألني عن شي!

❖ ❖ ❖ ❖

الفصل التاسع

كان نظر أبي عادل موزّعًا، بين اليمين مرةً، وبين اليسار مرات، في تعبير صارخ عن الملل. فلم يلتقط إلا نُتفًا مُتفرقة، من حكايات رشيد؛ فما له ولوظيفة التدريس التي أتعسَته!! كل المعلمين تعساء؛ فهل على رأسه ريشة؟ وما المتعة والفائدة التي يجنيها أبو عادل، من أخبار حرب أهلية، عايَش عَقدها الأخير؟

همّه الوحيد الآن معرفة كيف تطوّرت العلاقة بين أبيه ورشيد.

رشيد أعطاه رأس الخيط، ثم انحرف في السرد، وما عليه إذًا إلا تصحيح المسار.

* هل التقيتَ بوالدي، بعد أن ترك المعهد الديني؟

-قابلتُ عادل مرّتين، الأولى في سوق بعلبك. بعد شهرين

من مغادرته المعهد؛ رأيته من بعيد، يرتدي ثيابًا ملطخة بالطلاء. الثانية، كانت بعدها بخمس سنين.

حول رأس العين في بعلبك، اعتدتُ التنزّه على الرصيف، المظلّل بأشجار السرو والحَور؛ أجفَلني صوت مُنبّه سيارة، بالقرب مني. توقّفتُ، دقّقت النظر، فرأيت شابًا يترجّل من سيارته الفخمة، ويتجه نحوي مبتسمًا، نزع النظارة المذهّبة، فبانت عيون عادل.

صافحَني بأطراف أصابعه، مثل طانطات الصالونات الأدبية، متعمدًا إظهار سوار الذهب الذي يزين معصمه، هازًّا رأسه ساخرًا: «كيفك مولانا».

بعد التحية والسلام، سألني مُبتسمًا «أوَجَدت عملا يا مولانا؟».

-نعم، أنا أستاذ، وأنت؟

* أنا كما ترى.

-من أين لك هذا؟

* «يرزق مَن يشاء بغير حساب، أعمال حُرّة، بزنس». وغمَز بعينه.

ودّعته، داعيًا الله، ألا يجمعني به مرة أخرى، كيلا

يتشاوف عليّ، ويكرر على مسمعي جملته الساخرة (الشهادات لا تُطعم خبزًا).

بعدها، انقطع التواصل بيننا.

تنحنح أبوعادل: عمي رشيد، أسوَدّ قلبي من هذا المشهد المقزز، هلا أثلجت صدري ببقية قصة حبّك. أنا مُغرم جدًا بقصص الحُب.

-أيييه، لماذا تُقلّب علَيّ المواجع، يا أباعادل؟ المراسلات بيني وبين حبيبتي لم تعرف الانقطاع. كنا نتبادل لواعج الشوق، وآهات الفراق. رسائلها كانت سلواي ومؤنسي في القاهرة؛ كلما كرهتُ الجامعة والكتب الصفراء، هرعتُ إلى رسائلها، فأرتاحُ وأمضي. بكيت كالأطفال لرسالتها: «لِساعاتنا عند اللقاء أجنحة، وعند الفراق مخالب».

كنت أُشاورها في كل شؤوني، وكذلك تفعل. تسمع نصيحتي. وكذلك أفعل.

بعد تخرّجي في الجامعة، تكررت لقاءاتنا المفعمة بالحب الغامر، في بعلبك. كانت تقود سيارتها الفخمة، إلى مكان اللقاء، فأشعر بغصةٍ تُقلق أفكاري؛ ثم أُقنع

نفسي بتفاهة فارق اجتماعي، يُلغيه الحب.

* هل بقي حبكما عذريًّا، كما ذكرت لي، صارِحني، نحن وحدنا الآن.

-أكيد، ولكن الشيطان يُبرمج لك الغواية، يمسك بيدك، يسحبها ببطء، كي تهصر كَف حبيبتك؛ تستسلم هي بخجل، فيهمس الشيطان في أذنك: [[ضع يدك على كتفها، اضغط برفق. هي لن تُمانع. الآن، أمِل برأسك فوق كتفها، ستميل هي برأسها، فتتعانق الأفكار والأحلام. يكفي اليوم هذا الطقس البريء.

في لقاء قادم كرِّر العملية، واصمت نهائيًا؛ ستتولى الأنفاس مهمة الجذب، وتلتحم الشفاه]].

لكنني لم أفعل، فالمحب لا يُحرِج حبيبه. وأنا قطعت عهدًا على نفسي، ولم أخن العهد.

رسَمنا خريطة المستقبل. أكّدتُ لها، بأن عملي في مدرسة أبناء الشهداء مؤقتٌ؛ راتبه يكفي لفتح بيت مستأجَر، ذي متاع بسيط؛ وأنني أدرك الخطر المحدق بثائر؛ لكن أيّ عمل شريف، يظل أرحمَ من لقب (عاطل عن العمل).

وافقَت، وعدَتني أن تُخبر والدتها بتفاصيل علاقتنا الشريفة، وعن نيّتنا في الزواج. أكدَت أن أمها مثالية، متفهّمة، ومنفتحة فكريًّا، قد توافق. لكن والدها كتلة متحجّرة من التعصّب المَقيت، ثريّ ولكنه دقّة قديمة.

والدي نصَحني: «أنت أعلم بالدين مِني يا رشيد. التكافؤ أهم شروط الزواج. اِختر عروسًا تُماثلك جنسيةً ومستوى اجتماعيًا».

وكعادة المحبّين، أقنعت والدي بالعكس. والدتي انفرجت أساريرها، عانقَتني، وقالت: «أحسنتَ، قصة الحب، التي جمعَتني بأبيك، كانت مضرب المثل في عين ماهل. الزواج بلا حب جَمرٌ منطفئ».

الكُرة الآن في ملعب حبيبتي. لم يحتجْ ردُّ أهلها طويلَ انتظار. هاتَفَتني باكيةً، فأسكتُّها بكلمات متلاحقة: أهلك رفضوا زواجنا، بسبب اختلاف الجنسية، والمذهب، والمستوى الاجتماعي، أليس كذلك؟

* اِهدأ قليلا يا رشيد، اهدأ. لم تجرؤ أمي على طرح الموضوع على والدي مُطلقًا.

بعد أن فكّرَت في الأمر مليًّا، قالت لي: «إنسي

الموضوع بالمَرة. العَقبة لا تتمثل باختلافكما في المذهب، والمستوى المعيشي فقط؛ لكن سيجنّ جنون والدكِ، إن علم بأنك كنتِ تواعدين حبيبك سرًّا؛ وأيّ حبيب يا ابنتي!!؟ رشيد ليس أيّ حبيب. إنه يحمل جنسية الذين قتَلوا قريبَنا، قبل شهور، في معركة عسكرية قرب أحد المخيمات. أعلمُ أنه لا ذنب لرشيد في ذلك، ولكن والدك يُعمِّم دائمًا. لا يمكنكِ تخيُّل ردة فِعله، إن سمع بهذا الطلب. أنا أدرى الناس بطبعه. أهدأُ ردٍ قد تسمعينه منه: «نجوم السما أقرب لك، الموضوع محسوم، ولا داعي لفتحه من جديد».

صحيح، أنا متفهمةٌ، منفتحةُ الفكر والمشاعر، لكنني أضع الحصان قبل العربة.

الحب هو الحصان، الفوارق هي حِملُ العرَبة.

تقولين: «أحبه. الحب يبدّد الفوارق، فيتحرر الحصان، وينطلق».

كلام شاعري، مثالي القسمات، لكنك نسيتِ ـ والحبُ يُنسِي ـ حجم الحِمل، ووزنه.

الفوارق جبل من صخور.

هـل في هـذا العـالم حصـان يَقـدر علـى جـرّ جبـل؟ هذا إذا وُضعت العربة خلف الحصان؛ فكيف إذا كانت أمامه!!

تـوهمين نفسـك، تـرسمين أحلامًـا ورديـة، تصـرخين: «سـأهشّم الصخور، أجعلها هباء».

الهباء لا يفنى، ولا يُستحدث من عَدَم؛ ينتشر، تذروه الريـاح فـترة وجيـزة، وعنـد أول صـعقة عارضـة يتجمـع، يتّحد، فتنهمر الحجارة على العشّ، ويضيع كل شيء.

دعـيني أوضـح لـك أخـفّ الأحمـال: قبـل العـرس ستبتسـمين وأنـت تضـعين كفيـك علـى كتفَـي رشـيد، عينيك في عينيه، تذبّلين الحروف (لقمة صغيّورة تشبّعنا، عش العصفورة يقضّينا).

بعـد العـرس ـ إن أُقـيم عـرس يرضـيكِ ـ ستبتسـمين ابتسامة المجاملة خلال شهر تُسَمّينه عسل، ثم تبدئين في التراجُع. تتذكرين الكافيار والمشاوي، وأنت تجلسين إلى مائـدة لـيس عليهـا إلا المجـدّرة. هـل قبلـتِ بـأن تتـذوقيها، مجرد تذوّق، يومًا ما؟

تضـطرين إلى العمـل، وأنـت كنـتِ نـؤوم الضـحى.

تُقنعين نفسك، بأن تعاون الزوجين واجب لتأمين الضروريات؛ تنحشرين بين الركاب في الحافلة العمومية، تشمّين عرَقَهم، تتأفّفين، تكرهين الحافلة، والعمل والحياة. تستحضرين الخيال مع سيارتك الفاخرة ولوازم التجميل.

تتوقين من جديد إلى الرفاهية؛ والتّوق أول الطريق إلى تشكيل صخور الحِمل. سيحاول الحصان ويحاول جرّ العربة، لكنه يفشل. يغضب، يصهل صهيل العجز المتنامي، يُبَحُّ صوته، ثم ينكفئ على وجهه، ويسوَدّ المشهد.

اسمعي ما يقوله أهل الحي عن رشيد: «مُبهِرٌ رشيد، أيقونة رومانسية رقيقة؛ لكنّه تحفة منحوتة من لجوء وفقر وعناء، ظاهرها رقّة ضاحكة، وباطنها بركان يغلي دموعًا واكتئابًا.

يَضحك رشيد أحيانًا، ويُضحك؛ لكنه كالديك، يرقص مذبوحًا من الألم.

«هذا رأي والدتي يا رشيد».

-وأنتِ ماذا قررتِ، يا حبيبتي؟

* أنا محتارة، أتلظى بين نارين، أكاد أنهارُ.

-لن أستسلم أبدًا، حُبنا سينتصر، سينتصر. أنا قادم.

* إياك يا رشيد، إياك، أرجوك، فلنتمهل قليلا، والزمن كفيل بالحل.

-قضيتنا لن يحلها الزمن يا حبيبتي، بل الفعل. انتظري ردي غدًا .

أمضيتُ الليل ساهرًا يا أبا عادل. درست كافة الخيارات. فكرت في المواجهة. تفحصت حُججي، وحُجج أبيها. كان الاختلاف صارخًا، أنا في معسكر العقل والمنطق والانفتاح، وهو في معسكر الموروث المذهبي، والعشائري المنغلق. لن يتم التلاقي بين خطّين متوازيين.

حضر الشيطان؛ رسَم لي خططًا جهنمية، وأخرى إجرامية، فانبثق الشيخ الجليل أمامي، نطق بكلمتين فقط: «أمّها حكيمة».

عند الصباح رنّ الهاتف، جاءني صوتها واثقًا: «رشيد، أنا مستعدة للذهاب معك، إلى آخر العالم. حياتي من دونك موت مستمر».

شرحت لها الظروف والملابسات، ومحاذير التهوّر،

وختمتُ المكالمة قائلا: أنتِ لست حبيبتي فقط، بل أنتِ أنا؛ لكنك وحيدة أبويك. قمة الأنانية أن نبني سعادتنا على شقاء الآخرين. حَل المشكلة لا يكون بافتعال مشاكل أعقَد. الحب للبناء لا للهدم. وداعًا يا حبيبتي، وداعًا يا أنا.

أتتوقّع ما حل بي يا أبا عادل؟ دمار شامل. لم تعد الحياة تعني لي شيئًا. حبستُ نفسي ضمن جدران البيت، أمسكُ من الكتب ما كنت أعشق، ثم أرميه أرضًا. أفتح التلفاز، علّه يُخرجني من وحدتي والكآبة، ثم أُطفئه. أذرَعُ الغرفة جيئة وذهابًا، ثم أخرج إلى الشرفة، يقتلني القرف من حركة الشارع، أعود استلقي على السرير، فتدمع العيون.

أسبوع بكامله، وذاتي تنهش ذاتي؛ قلبي يصارع عقلي، وعقلي ينهزم.

ثم قررت المواجهة وإنقاذ حبّي. يجب أن أكون أنا، ولتذهب الظروف والنتائج إلى الجحيم. لستُ أول شهداء الحب، ولا آخرهم. أريد حبيبتي، أريد حبيبتي.

وجدت بوابة بيتها مُكبّلة بقفل ضخم، وخلفها أوراق

الخريف تنتحب: البيت مهجور.

سألت أحد الصبيان، أجاب: «رحلوا نهائيًّا إلى بيروت».

صار بيتها قبلتي، أزوره بين الفينة والأخرى، فأرجع بخيبتين، فراق ورحيل. ستة أشهر، وأنا كقيس بن الملوح، أبكي على الأطلال.

* هذا ما حلّ بكَ، فماذا عنها؟

-حاولت أن أسأل، وكان الجواب: (ما المسؤول عنها، بأعلم من السائل).

تفقّدت صندوق البريد مرارًا، فكان الفراغ يمدُّ لسانه في وجهي.

لم أنتظر بعدها حُبًّا جديدًا. الحب الحقيقي كالروح. مرةً واحدة يحلُّ فيك، فيصبح أنت، وأنت لا تتكرر.

انطبَق عليَّ القول (الحب للشجعان، الجبناء تُزوّجهم أمهاتهم). بعد انتهاء العام الدراسي، سافرتُ إلى الأردن حيث أقاربي؛ كان الهدف محددًّا برؤية ابنة عمي. أمي انتقَتها لي، حين زارت الأردن مع أبي. قالت لي «بنت عمك، من لحمك ودمك، إن جار عليك الزمان، تعيش

على الخبز والماء، ثم إنها حائزة على الشهادة الثانوية، صائمة مُصليّة، وسِتّ بيت، كاملة مكمّلة».

وجدتُها مناسِبة، على قاعدة (فاظفر بذات الدين تَرِبت يداك). ورغم أنني لم أفهم معنى (تربت يداك) ولم يفهمها أحد؛ ولكنهم يرددونها دائمًا.

* هل من الضروري أن يُبنى البيت على الحب؟

-مؤكد، هذا أفضل؛ ولكن غالبية البيوت تُبنى على العِشرة؛ وخاصة أولئك الذين فشلت قصة حبّهم.

يا أبا عادل، مَن يَفقد الحب يَشقَ.

حين تختار الهُم على الأنا، عليك أن ترضى بالنتائج. كلنا نتسرع في اختيار الزوجة، نظن أننا قادرون على دراسة الشخصية، ونحن في الحقيقة، لا نفقه من أدوات الدراسة شيئًا؛ بل لا نفهم أنفسنا أصلا؛ يكون انجذابنا جنسيًا فقط. وبعد شهر البصل، تقوم حرب داحس والغبراء بين الزوجين؛ تظهر النفسيات على حقيقتها، تتكشف الصفات الشخصية، ويحدث التصادم. بعض الواعين يدركون ما ينتظرهم في المستقبل، فيُطلّقون؛ والغالبية لا.

المشاكل تكون من الزوجين بنِسب متفاوتة، كل واحد منهما يدّعي أنه ليس البادئ بافتعالها؛ بل يرُدُّ الفعل لا أكثر. ولكن النتيجة واحدة لا تتغير، شركة فاشلة اسمها زواج.

أتدري ما هو السجن يا أبا عادل؟ أن تعيش مع مَن لا يفهمك.

اكتشفتُ بعد ربع قرن من الزواج نظرية اجتماعية، أكّدَتها الوقائع والتجارب:

اثنان لا يجب أن يتزوجا نهائيًّا، الشخص المبدع، ورئيس الجمهورية.

الأول سيفشل ويُتعس زوجته، وعياله بطبعه وسلوكه ومشاغله. والثاني سيصبح دكتاتورًا، وسيورث السلطة لأحد أبنائه، فيصبح الحكم جمهوريًا وراثيًّا (جَمْلَكة)؛ وعليه، فالأفضل أن نخصي هذين النموذجين من البشر.

وهكذا سارت الأمور؛ كنتُ أبحث عن النكت كي أضحك، الآن يكفي أن أقف أمام المرآة.

هذا هو الوصف الأصدق لحياتي.

وضعٌ غير مريح؛ لكنه لم يكن سلبيًّا تمامًا، دفعني

إلى الانـزواء والمطالعـة النهمـة. رحلـت إلى عـوالم سـحرية، كشَـفَتها الروايـات والقصـص القصـيرة، والكتـب الفكريـة في المجـالات جميعهـا، فتشـكَّلت لـدي ملَكـة النقد البنّاء. أخبرَني الشيخ الجليل أنها المقدمة الضرورية الأولى، لكشف السر الأعظم.

* شـغلتَ بـالي بهـذا السـر الأعظـم. لا تغيـب عـن مخـيّلتي صورة الشيخ الجليل، شديد بياض الثياب، شديد بياض الشعر. هل ظهر لك من جديد؟

-تأخّرنا على قرينتي، هيا بنا يا أبا عادل.

في السيارة أُخبرك.

❖ ❖ ❖ ❖

الفصل العاشر

عزيزي أبا عادل، لا تشغل بالك بالسر الأعظم. هو ليس مقولة جاهزة، يُتحفك بها أحدهم، فتتنفس بعمق، مرتاحًا من عناء التفكير. كان بإمكان الشيخ الجليل أن يخبرني بالسر الأعظم مفصّلا، منذ البداية؛ لكنه طلب مني المطالعة والبحث. أتدري لماذا؟ حتى أؤمن بما توصلتُ إليه إيمانًا يقينيًا، وأقتنع اقتناعًا مُدعّمًا بالحجة والدليل، لا بالتلقين الساذج.

سِرٌّ بهذا الحجم، وبهذه الأهمية، يتشكّل على مراحل، لا تخلو من كدٍّ وتكدير.

ما سمعتَه مني من وقائع وأحداث متتالية يتضمّن أفكارًا متراكمة، إذا وعيتَها جيدًا، فقد تكشف جزءًا من السرّ أنت، وأكشفُ أنا جزءًا آخر، كما وعدني

الشيخ الجليل، فتتكامل الصورة، ونتقابلُ في خاتمة القصة، وقد كشفنا السر معًا. وإن عجزتَ، تكون قد فُزتَ بشرف المحاولة.

-أين وصلنا في القصة، يا أبا عادل؟

* عملك في مدرسة الأيتام.

-نعم، الحق يقال، فإن السنوات الثلاث، التي قضيتها فيها، زادتني تعَلّقًا بالوطن، جعلني أترك التدريس، وأنخرط في قسم اللاسلكي المدني، التابع للحركة، وأصبحت مشرفًا على قسم الشيفرة. تمكّنتُ من كشف عميل مدسوس بيننا، اعترَف أثناء التحقيق، أن زعيم الشبكة التي جَنّدَته، يدعى(ع. غ).

* مَن هو هذا المجرم، تكرر اسمه على لسانك، في مناسبات عدّة، واللّه لو أمسكتُه، لأمزّقنّه بأسناني.

-لن تمسكه، ولن يمسكه أحد، طمَعُه سيوقع به.

* ما جنسيته، وهل هو من جماعتنا؟

-لا أعرفه. وسواء أكان من جماعتنا، أو من جماعة الشيطان، لا فرق. الخائن لا جنسية له، ولا دين.

لم يطل عملي في هذا المجال؛ لمست التمييز الجائر

بين أبناء الوطن السليب. وهناك سبب جوهري آخر، هو عدم قناعتي بالتحرير من خارج الأرض. لم يُحدّثنا التاريخ عن ثورة انتصرت، وهي تعيش في أحضان أنظمةٍ تمقُتها، وتعمل ضدها.

أنظُر يا أبا عادل، تأمل كرْم الزيتون هذا، يا اللّه، ما أجمله!! رأيتُ مثله في دولة اغترابي. آه، مما حدث لي هناك!!

* الغُربة للرجال، معظم المغتربين يعانون في البداية، ثم يُثقِل الذهبُ جيوبَهم.

-لا يمكن لرجل دين شريف أن يجمع ثروة، يا أبا عادل.

أمضيت سنة واحدة في التدريس، ذقت فيها الأمرّين كمدرس (مازجري) هي كلمة يطلقونها هناك على الأغنام المستوردة. الطلاب يعتبرون أنفسهم أعلى من المدرس شأنًا. أحدهم كان أكبر من زملائه بثلاث سنوات، فتأكدتُ أنه مخابرات.

أُجبِرت على تدريس كتاب الزعيم؛ كان عليّ أن أُبرز حسناته وإيجابياته، وأشرح أنه النظرية الفضلى لإسعاد البشرية.

راتبي كان عاجزًا عن تأمين عيش كريم. لم يكن في بيتي المستأجَر سوى حصيرة بلاستيك، وفرشات إسفنج، وأغطية، وبعض أدوات المطبخ. أُقسِم، أنّني ظللت، عامًا كاملا، في بيتٍ خالٍ من أية أداة كهربائية. انتقلت بعدها للعمل مع شركة ألمانية أعمالا إدارية، وبقيت معهم ست سنوات، هي جنة حياتي. معهم لمست احترامهم للآخر، وتقديسهم المرأة، وإنسانيتهم الراقية، وإعطاءهم الحقوق كاملة، في مقابل القيام بالواجب. منهم تعلمت احترام الوقت والموعد، وعِشق العمل، وتذوُّق المشروبات الروحية. لماذا أُخفي هذا؟ كل الناس يجَرّبون الممنوعات، لكن القليل منهم من يعترف. هم تصالحوا مع أنفسهم. لم أسمع أحدهم يتباهى بماضي الأجداد. مستر موللر ارتكب جنحة بسيطة، وحين خضع للتحقيق، ضحك أمام المحقّق، عندما سأَلَه عن اسم جدّه، فردّ بثقة: «لا أعرف، يمكنك أن تسألني عن اسم ابني وحفيدي، إن كان هذا يفيد التحقيق».

يا أبا عادل، نحن نَفُوقهم في ارتكاب الموبقات، نفعلها سِرًّا، ونتباهي بالتديّن المظهري، لحية، وسبحة،

وزبيبة في الجبهة، من أثر السجود.

* عمي، أبا محمود، بعد سماعي هذا، أظن أنني كشفتُ خيطًا بسيطًا من نسيج السر الأعظم. بعد أن تنجح في كشفه كاملا، في عين ماهل، أرجو أن تتصل بي، وتطلعني عليه، وتخبرني هل ما كشفته أنا كان صحيحًا؟

-وما الخيط الذي كشفتَه أنت يا أبا عادل؟

* نحن نعامل المرأة بقسوة، ونفوق الألمان أيضًا، في كسر قلوب النساء.

تضايَق رشيد، وقد أدرك أن أبا عادل يعنيه شخصيًا.

أبو عادل طفَح الكيلُ عنده. كان يتمنّى أن يتطرّق رشيد إلى موضوع آخر، بدل تمطيطِ سيرته العظمى، وتشويقِه بسرّ الشيخ الجليل الأعظم. لا تهمّه هذه السيرة في شيء، بل لا تهمّ أحدًا قط، حشو كلام، ما هو إلا قتلٌ للوقت، وإبرازٌ لإنجازاتٍ يتباهى رشيد بها، فقال: «مذ انطلقنا من بعلبك، وأنت تسرد سيرتك الذاتية، وتعترف بأسرارك الشخصية. أشكرك على هذه التسلية، وعلى ثقتك الكبيرة بي. سأمحو أسرارك من ذاكرتي بكل

تأكيد، اطمئِن؛ ولكن أنصحك، ألا تثق بسائقي التاكسي، حتى لو كانوا أصدقاءك.

معظم السائقين العموميين مخابرات، خاصة الذين يعملون على خط المطار، والذين يعبرون الحدود. الظروف تُغيّر البشر؛ يكفي أن يُقاد المواطن العادي إلى فرع مخابرات، حتى يدلق أمام المحقق، ما يعرفه وما لا يعرفه، خوفًا من العذاب الأليم، فكيف بسائقٍ يقع في ورطة، لا يُخلّصه منها إلا فرع مخابرات؟ عندها تُلقى عليه الشِباك، ويُشترَط عليه العملُ معهم، خدمة للوطن الحبيب».

-هي ليست أسراري فحسب. أسرار غيري معجونة فيها؛ ولكنك لم تنتبه لما خلف السطور.

لقد قاطعتَني، ولو صبرت لنلت. سيرتي الذاتية تكون تطفُّلاً مني، إن لم تحمل في طياتها هدفًا وعبرة.

أنتَ حدثتَني عن جزء من سيرة حياتك أيضًا، أتدري لماذا؟

كل البشر يُمجّدون أنفسهم، يروون من سيرتهم الذاتية، ما هو إيجابيّ فقط، ويُلقون بتبعة السلبيات على

الغير. العوام يُقلِّدون، فتبدو سِيرتهم نسخة طبق الأصل عمَن سبَقهم. المثقفون يبتكرون سيرة جديدة مختلفة. يكتشفون ما يُخلّدهم. يمرون بعدة مراحل: انسجام مع القطيع، فَنَقْدٌ للموروث، ثم يَدخلون المنطقة الرمادية؛ بعضهم يراوح عندها حتى يموت، ومعظمهم ينسِفون الفكر الراكد، ويبنون نظريتهم الفلسفية الخاصة، ينقشونها بحروف من نور، فتضيء للبشر.

أروي لك سيرتي كتجربة شخصية، قد تستفيدُ منها في حياتك، أو يستفيد منها أبناؤك. تأخذون منها النافع، وتبتعدون عن الضارّ. فلا تكن مَلولا، عَجُولا.

* معذرةً مولانا، تفضل أكمل.

عمِل معي في الشركة الألمانية شاب عربي خَلوق، متديّن جدًا، فصادقتُه. كان يحدثني عن إيمانه بأفكار جماعة تدعو إلى الحاكمية، والمفاصلة، وتكفير المجتمع. كان يجابهني بحدة: «أنت لم تفهم الدين الصحيح، ما لقنوك إياه في الازهر فكر قروسطي متخلِّف. الدين حركيٌّ، يجب أن يحكم العالم كله».

صرت أحلل حديثه، وأراقب سلوكه، فوجدته يكره

أهلـه، وأقاربـه، والنـاس أجمعـين. أخـذت حـذري. صـرت أرفض مرافقته، أو زيارة بيته، إلى أن وقعت الواقعة:

حـدثت محاولـة انقـلاب علـى النظـام؛ أفشَـلها سـائق تاكسي.

ركِب معه من نقطة الحدود رجلٌ يلبس بذلة جينز، يُخفي عينيه بنظارة سوداء، ويحمل حقيبة دبلوماسية.

قبل الوصول إلى المدينة المقصودة بقليل، طلب الرجل إنزاله في منطقة جرداء.

شـك السـائق في أمـره. بلّـغ الأمـن، طَوّقـوا المكـان، قبضـوا عليـه، أجلسـوه في غرفـة جانبيـة. دخـل المحقـق لاستجوابه، قَتله الرجل برصاصة في جبينه، وفَرّ هاربًا. لاحَقوه ودرزوا جسده بثلاثين رصاصة.

فتحـوا الحقيبـة الدبلوماسـية، عثـروا علـى مخطـط الانقـلاب، فرِحوا بقائمة أسماء المشاركين فيه؛ قبضوا عليهم، وشُنِقوا جميعًا أمام ذويهم، وفي حضور الأهالي.

هـل ينتهـى الأمـر عنـد هـذا الحـد؟ حقّقـوا مـع ذويهـم وأقـاربهم، ومعـارفهم وأصـدقائهم، فعَلِـق صـديقي في المصيدة.

صرت أرى رجال الأمن، يتبعونني أينما حللت، وحيثما اتجهت. فكَرتُ في مغادرة البلد، ظَهر الشيخ الجليل أمامي، وقال: «ليس الآن».

دام اعتقال صديقي شهرين، عكفتُ خلالها على قراءة كتب هذه الجماعة، ذات الأهداف السياسية، فاشمأززت منها.

خرج صديقي من المعتقل، نصفَ إنسان، كائنًا من جلد وعظم.

قطعتُ علاقتي به، وبفكره؛ وكنت قد كنست الأزهر، ومعلوماته الصفراء من ذاكرتي، فارتاح عقلي من وطأة العلم العقيم، وانطلقت أبحث عن اللّه من جديد.

صرت مشركًا، أعبد اللّه والكتاب.

كتاب واحد غيّر مجرى حياتي وتفكيري. اشتريته من بائع على الرصيف بربع دولار فقط، ووجدت فيه كنز الكنوز (دع القلق وابدأ الحياة) عشقت بعده الفنون السبعة، واعتكفت في محراب الفكر والفلسفة و الأدب.

صمدتُ ولم أرحل؛ لكنني كرهت حياتي، في جوّ القمع هذا، فرجعت إلى بعلبك، حاملا خمسين ألف هَمٍ،

ومثلها من الدولارات.

أنجبتُ للبشرية خمسة أفواه. تعبتُ، عانيتُ، ربّيت وعلّمت، وزوّجتُهم. صدّرت للغرب عَقْلين، ونال الأردن شرف استضافة ابنتي الصغرى. بقي معي في بعلبك ولد وبنت. وها أنا أتركهم وأمضي في رحلة العودة إلى فلسطين، وتوتة توتة خلصت الحدّوتة.

* يا إلهي، أحداث تراجيدية مُرعبة. أجدت سردها؛ لكنك قفزت عن ذِكر مدبّري الانقلاب.

-حسنًا. نشَرَت آنذاك إحدى الصحف، أنّ شركة مالية ضخمة، مقرّها في دولة غنيّة، هي التي موّلت الانقلاب بالمال والسلاح، كوَسيط بين الدولة المتآمرة، ورِجال الانقلاب.

أجفلَني يومها أن مدير الشركة، رجل أعمال، هو نفسه(ع. غ).

* ملعون أبو الساعة، التي وُلد فيها هذا الحقير. مَن يكون؟ مَن يكون؟ حتى يتوزع نشاطه الإجرامي في لبنان وخارجه؟

-يا صديقي، الخيانة مشروع، والمشاريع تنمو. سبق وقلت

لك لا أعرف (ع. غ) ولا يعرفه عامة الناس، هذه أسرار دُول.

* وهل نجا بفِعلته؟

-كيف ينجو، وهو كبش الفداء؟ وجدوه في مكتبه، مقتولا بثلاث رصاصات، واحدة في الرأس، وأخرى في القلب، والثالثة في ذراعه الموشومة بخفّاش، مكتوب على جناحه كلمة أنا.

راح أبوعادل يصفع خدّيه بكفّيه «يا ويلي، يا ويلي، يا ويلي(ع. غ) عادل غوراني، أبي».

توقفَ إلى جانب الطريق، ألقى برأسه على مِقوَد السيارة لحظات، ثم رفَعَه قائلا: أيّ عار ألْحقتَه بي، يا أبي، وبذرّيتك!! (الآباء يأكلون الحصرم، والأبناء يضرسون).

ربَّت رشيد على كتف أبي عادل، مهدئًا له: «عفوًا يا أخي، لم يخطر ببالي أن الحرفين يختصران اسم أبيك؛ لا تحزن، عارُه على نفسه. (لا تزر وازرة وزر أخرى). قلت لك: طمعه سيوقع به.

نفَضَ أبو عادل يده إلى أعلى، وقال: «وما من ظالم إلا

سيُبلى بأظلم. لا تُخبرا أحدًا بهذا الخبر، وأنا لن أفعل».

أخذ رشيد نفَسًا عميقًا بعد أن انتزع ذكريات اللجوء كلها من دماغه، وقذفها في أُذن أبي عادل؛ ثم ساد الصمت المطبق إلى أن دخلوا عمّان؛ فراح رشيد يدله على الطريق إلى بيت كريمته.

❖ ❖ ❖ ❖

الفصل الحادي عشر

طال عناق رشيد لابنته وحفيدته وأقاربه.

دخل أبو عادل، كي يُصلي، ثم انفرد برشيد:

* ذكرتَ لي أن حبيبتك وحيدة أبويها؛ وأن والدها كان غنيًا؛ وأن أحد أقاربها قُتل في إحدى المعارك، قرب المخيم؛ هل تذكر اسمه؟

-نعم، اسمه لا يُنسى، بسبب غرابته (نيازي).

* إذًا، اسم حبيبتك سحر.

فغَر رشيد فمه وعينيه: «وكيف عرفتَ؟!».

ابتسم أبو عادل: «ومَن لا يعرف أمّه يا روميو؟!».

ارتمى رشيد فوق الأريكة، مُخفِيًا وجهه المحمَرّ بكفيه.

جلس أبو عادل بقربه، طوّقه بذراعه، وأزاح كفيه

عن وجهه، فبانت دموعٌ تسح على الخدين. وقال كلمات هادئة «الحُبّ العذريّ مُقدّس، وليس عيبًا، يا عمي رشيد.

جاء دوري الآن كي أكمل الحكاية:

بعد شهور من انتقال حبيبتك وأهلها، للإقامة في بيروت، تقدّم عادل لخطبتها؛ وافق أبوها فورًا. أقنعَها: [إنه يُشبهنا، شابٌ عصاميّ، مالٌ وجمال، حسَبٌ ونسَب].

بعد الزواج بعام، توفي جدي وجدتي، في حادث سير مروّع، غامض؛ فورِثَتهما أمي.

أقنعها عادل بلسانه المعسول، فوقّعت له على وكالة عامة للتصرف بالأموال المنقولة والثابتة. وأترك لك تخيُل السيناريو الذي تلا ذلك.

مسكينةٌ أمّي، ذاقت مرارة الحياة، ثلاث مرات: بعد زواجها المسموم، وبعد طلاقها المشؤوم، واليوم كشَفتَ لي المرارة الثالثة. اقرأ لها الفاتحة يا شيخ رشيد، واستغفر لذنْبكَ، إنكَ كنت من الخاطئين».

قالها أبوعادل وتعانقت الدموع.

مسح رشيد عينيه: «رحمها الله، كانت الفرح الأكبر في حياتي؛ ولكن لعن الله العادات القبَلية البالية،

والمذهبية الضيّقة، والتراث الأصفر، الذي يحرمك كل شيء، كل شيء. أشكرك يا أبا عادل، آنَستني في هذه السفرة المشوّقة».

* «بل أنا أشكرك، رسمتَ لي شخصية أبي وأمي بدقة صادقة، هكذا تظل أمي حَيّة أمامي».

عانَقه رشيد مرة ثانية، وأكد عليه: «طمّني عبر الواتسأب حين تصل إلى بعلبك، ولنَبْق على تواصل دائم».

لاحظت أم محمود آثار الدموع على وجنتي زوجها: «ألهذه الدرجة تحزن على فراق السائق؟».

-لا، طبعًا؛ إنما غسلت دماغي، بعد أن كنَستُ منه ذكريات اللجوء، وسأترك للوطن تسجيل ما يشاء.

أقارب رشيد ينتظرون مجيئه كل عام، كي يتجمعوا، ويستمعوا إلى نهفاته، ومغامراته، وتعليقاته الكوميدية. طلبوا منه الإقامة الدائمة بينهم، لكنه قال: «طلبَتني الجذور».

لم يطل به المقام في الأردن، وقد نال وزوجته تأشيرة الدخول إلى الكَيان، خلال أسبوع فقط؛ زار خلاله جميع أقاربه. اتصل بابن خاله في عين ماهل، أخبره بموعد

الوصول المحدد، فأطلق صرخة فرح مدوية، خلخلت طبلة أذن رشيد.

تأخر أبو عادل في الرجوع إلى بعلبك عدة ساعات، قضاها يُلقّط رزقه. شحَن من عمّان عدة كيلوات من الزعتر الفلسطيني حار المذاق، المُحوّج بالسمسم والسُماق، ثم اشترى الصابون النابلسي الصحي، المصنوع من زيت الزيتون. لهَطَ أوقية كنافة نابلسية، وعاد يترزّق في دمشق، يلبي طلباتٍ أوصاه عليها بعض المعارف: برازق، حلاوة الجبن، أدوية زهيدة الثمن، مناشف، غيارات داخلية قطنية. هو يَحلف، بأنه لا يأخذ ممن أوصاه إلا أجرة نقل الحاجات المطلوبة، ليرات معدودة؛ بينما يُقسِم من يعرفه، بأن بيته الفخم في بعلبك يُكذّبه.

بعد العَشاء، جلس أبوعادل يتسامر مع زوجته، يخبرها عن مشوار الأردن: «تأثرتُ كثيرًا عندما عانق الشيخ رشيد ابنته، وحفيدته في عمّان، وحين تلقّاه الأقارب بالأحضان. ظهر احترام عمّه له، حين خَفّ إلى خروفٍ ذَكَر، وذبَحه قُدّامه. «هنيئًا للشيخ رشيد». ودمعت عينه.

* لِم دمّعتَ، ماذا حدث؟ تساءلت أم عادل.
* لم يحدث شيء، علمت منه أنه لن يستقر في عمّان. وقد فوجئت بأنه كان زميل المرحوم والدي.
* المرحوم؟!!!

وراح أبو عادل يُخبرها بأفاعيل والده، وقصة مقتله.

* لا ردّه اللّه، ظالم، خائن، عميل. لا أطيق سيرته. لكنني لم أعرف بعد؛ مَن هو الشيخ رشيد؟ وهنيئًا له على ماذا؟
* هو أبو محمود، الذي يسكن قريبًا من بيت ابنة عمك أم العبد. وأَكتفي بهذا القَدْر؛ لكن احذري، هذه معلومات خاصة ليست للنشر والتوزيع؛ لسان المرأة ذو ثلاث شعب؛ تُغريكن اللعلعة.
* أعوذ باللّه، شو بدي فيه، وفي أخبارو، همّي مكفّيني!!

أبو عادل نام يشخر تعبًا من الرحلة؛ بينما سهرت أم عادل مع تحليل الموقف: «مُحال أن يذرف أبو عادل دمعة على أبيه الظالم. لماذا سالت دمعته إذًا؟».

بعد أن انطلق أبو عادل إلى عمله صباحًا، تسلْحَبَتْ لزيارة ابنة عمها أم العبد؛ هي الركن الثالث من أركان

الصبحيات المباركة، التي كانت تضمها مع أم محمود، وأم سليمان. وعُقدت الجلسة.

بدا الاكتئاب الشديد على أم سليمان، بعد سفر جارتها، حشيشة قلبها؛ وهذا أمر من الطبيعي أن يثير التساؤل لدى المجتِمعات.

* خير، مالك مُصفرّة، ومكدّرة؟!

* ما في إلا الخير، ولكن رحيل أم محمود إلى الأردن هَدّ حَيلي، صديقة طيبة القلب، لبقة ومتحدثة بارعة، متنوعة المصادر.

حاولت أم سليمان جاهدة أن تكتم المعلومة الخطيرة؛ لكن جارتها أم العبد كانت داهية، تتقن حلْبَ المعلومات: «دخلك، وليش محمّلة الموضوع هلأدّ؟ ما دام أم محمود رايحة تعيش بالأردن، معناتو ممكن ترجع تستقر هون. ما هيّي حِزّك مِزّك، رايحة جاية، كل سنة عند بنتها بعمّان».

بلعت أم سليمان ريقها، هزت رأسها، ففهم النسوة أنها تخفي سِرًّا. تهادى صوت أم العبد: «معقول يا حبيبتي تخبّي عنا، خلص، بُقّي البَحصة، اطّمَني، سِرّك في بير».

* لا، آسفة جدًّا، أم محمود أمّنتني على السر. آسفة.

* أيّ سرّ يا أم سليمان؟ زوجي، أبو عادل حكى لي كل شي، هو اللي وصّلهم إلى عمّان، خلص بُقّي البحصة.

(بَقّت البحصة) فتنهّدت بعلبك، ولسان حالها يقول: هنيئًا للشيخ رشيد، عاد إلى فلسطين.

متى، وكيف عاد؟ لا أحد يسأل.

لماذا عاد؟ ذاك هو السؤال.

تشعّبت التحليلات، رُبطت سيرة حياته بها، تنوعت التبريرات عند الناس العاديين، ثم خمد الخبر.

لكن، أنى لمثل هذه المعلومة أن تمُر على رجال الأمن مرور الكرام؟!

لم يحتج الأمر غير سويعات قليلة، حتى كان السائق، أبو عادل، مُكبّلا في غرفة التحقيق..... ثم اعترَف.

تمّت كتابة الأقوال على خمس صفحات، مع تسجيل صوتي دامغ، ثم أُطلق سراحه.

التحقيق لم يتوسّع كثيرًا. شمل ابن رشيد، وابنته، والجيران والمعارف والأصدقاء، وأصدقاء أصدقاء

الأصدقاء فقط، وكلهم تطابقت إفاداتهم، بأن الأستاذ رشيد، كاتب مشهور، محترم، كريم، شهم، منفتح دينيًا، وطنجي جدًّا؛ لم يسمع أحد، أنه كان طرفًا في مشكلة، بل على العكس، هو حلال مشاكل. كان شِعاره في الحياة (إذا أردت أن تكون تافهًا بين الناس، تَجَاهَل همومهم).

تناول المحقق قلمًا أحمر، ووضع خطين تحت عبارة (وطنجي جدًا) وشَكر كل من أدلى عنده بأقوال.

لم يحسب الأستاذ رشيد حسابًا لكل هذا قبل أن يرنّ هاتفه الجوال، ويسمع من ابنه في بعلبك تفاصيل التحقيق، وانتشار الخبر، الذي تضخّم، فصار نظرية مؤامرة، مُلخّصها: رشيد عميل خطير.

استغرب كثيرًا ما حدث، وتلاعبت برأسه الظنون.

لم يلُم نفسه، فالخبر كان سينتشر، مهما حاول إخفاءه؛ مُجبر هو على الإفصاح عنه أمام ابنه، وابنته على الأقل. ولم يلُم زوجته؛ مُجبرة هي على إخبار جارتها، أم سليمان.

ربما تَسرّع حين دَلَق سيرةَ حياته في أذن أبي عادل.

بعض المحطات كانت واجبة الكتمان؛ لكن إصراره على غسل دماغه من ذكريات اللجوء أنْسَاه كل المحاذير.

قديمًا، تابَع مسلسل رأفت الهجان؛ قرأ روايات تَشرح كيفية تبادُل المعلومات الاستخباراتية بين الدول.

قلَب شفته السفلى، مع هز الكتفين إلى أعلى، ثم قال: «أعرف نفسي جيدًا، أنا بريء من التهمة المفبركة، لماذا أقلقُ إذًا؟!».

❖ ❖ ❖ ❖

الفصل الثاني عشر

صبيحة اليوم المحدد للسفر إلى عين ماهل، انطلق التاكسي نحو (السَّلط). تنسّم رشيد الهواء المضمّخ بعبق السرو والصنوبر، فقال: «ما أشبه هذا الجبل بجبال لبنان!». انحدر الطريق نحو وادي العارضة، المتلوّي كالأفعى، كان السائق شديد الحذر، يثرثر: «وادي الموت نُسمّيه لكثرة الحوادث اليومية هنا. هذه فلسطين أمامك يا حاج».

دمعت عين رشيد، وهو يُصوّر بلاده من بعيد.

تنفس السائق الصعداء، حين وصل منطقة الشونة السهلية، وأشار بيده: «هنا حدثت معركة الكرامة».

لاشعوريًّا، انطلق رشيد بغناء ثوري خافت، مَجّد آنذاك معركةً حطمَت مقولة الجيش، الذي اتّضح أنه نمر

من ورق (وحّدنا الدم يا كرامة، وحّدنا الدم، والشمل التمّ يا كرامة والشمل التمّ...) ثم قال: «رحم الله تلك الأيام، أين كنا، وأين صرنا؟».

* «وهذا جسر الملك حسين». قال السائق.

-«لِم لا نسمّيه جسر الكرامة، أليس أفضل للشعبين؟». علّق رشيد.

* «يا سيدي، كل واحد يسمّيه حسب قناعته؛ اليهود يسمونه جسر اللنبي، وأنتم قديمًا أسميتموه جسر الشيخ حسين، والكرامة. الاسم لا يُقدّم ولا يؤخر. الأهم، ما يقدّمه حامله من منفعة؟!».

متّع ناظريه من بعيد بأرض الأجداد، ذرف دمعة، وهو يتذكر أحاديث والده عن هذه المنطقة، يوم خَيّم فيها مع مصلحة المساحة، قبل النكبة بأعوام. نهرٌ جارٍ رقراق بين جنات على مدّ النظر، تسحر الألباب. لوحات متنوعة الزركشة والألوان، مزارع نخيل، وفلاحون على ضفتي النهر، يعملون بصمت الرهبان.

نظر نظرة نحو الشمال، فقال لزوجته: «هذا الوادي امتداد لسهل البقاع، حيث بعلبك. نحن نقف الآن في حفرة

الانهدام الكبير، الممتدة من تركيا وحتى الصومال».

حرارة الطقس تواطأت مع حرارة عشق الأرض، فكاد يُغمى عليه. بعد قليل، سيصبح في بلاده، وهذا وحده سبب كافٍ لتأجيج المشاعر.

طلب موظف الجمارك منه وضع الحقائب على البلاطة المستطيلة، والذهاب إلى غرفة تفتيش الرجال؛ وطلب من زوجته التوجّه نحو غرفة تفتيش النساء. وللأمانة؛ فقد كان التفتيش دقيقاً، دقيقاً جدًا جدًا.

عادا إلى حيث الحقائب، فوجدا أحشاءها منبوشة، مبعثرة، ظاهرة للعيان. حملاها بعيدًا، وراحا يطويان الثياب، و يرتّبان الهدايا قطعة قطعة.

قال رشيد هازئًا: «إذا كان هون هيك، فكيف هناك؟». وأشار إلى الضفة الأخرى.

شعرا بضيق شديد، بسبب طول الانتظار، وكثرة الأسئلة؛ لكن ذلك كله زال، عندما عبرت السيارة الجسر، وتوقفت أمام جنود يعتمرون النجمة السداسية.

كرِها رؤيتهم، شَعَرا بحقد بالغ تجاههم. لكن رشيد جاهد نفسه، كي يخفي الامتعاض، وهو يقف

طويلا، أمام مفتش الجمارك.

دخل قاعة ختم الجوازات. طُلب منه الجلوس في غرفة جانبية. كان تحقيقًا عاديًا حول أسئلةٍ بعضها شخصي، وآخر سياسي:

* «مع أي منظمة إرهابية كنت في لبنان؟».

-«لم أنتمِ إلى أي منها. أكره السياسة، وأهتم بعملي، وعائلتي فقط».

* «إسمع رشيد، كل فلسطيني أقام في لبنان انتمى إلى التنظيمات، هذا أمر مفروغ منه».

-«أصلا، لو كنت منتميًا إلى أي منها، فلن أغامر بروحي، وأسلّمكم نفسي. ولو كنت منتميًا لعرفتم عني ذلك بالتأكيد، فمخابراتكم تعرف عدد حبات القمح، في بيت النمل».

* «حربوق، يا حاج رشيد، مانّكش قليل، جواب ذكي، معك حق، مع السلامة يا سَندي».

ابتسم رشيد: «لهجتك عربية، مثل لهجة أهل الشوف بلبنان».

* «أي يا خيّي، ما أنا من ظيعة بالجليل، اسمها (دالية

الكرمل) بدنا نعيش، ونسترزق، يا عمي، شو بَدنا نعمُل؟».

تدخّل جندي أشقر الشعر: «تفزّل حجّي، إنتي رايخ تتبسط كتير ببلادنا».

ابتسم رشيد في خِلقته ابتسامة دبلوماسية صفراء؛ بينما شقّع له في سرّه تشقيعات إباحية، من كعب الدست: صارت بلادك يا أخو ستين...؟

خرج، والانشراح بادٍ على محياه، ثم سجَد فوق ثرى الوطن سُجود العودة. مسَح الدمع وقال : «كل شي تمام يا حَجّة، صرنا بفلسطين، صرنا بفلسطين، صرنا بفلسطين».

تأخر السائق لإتمام بعض الإجراءات الطارئة، بسبب هذا الضيف الغريب، وسرح رشيد مع أحلام اليقظة: أكيد، عين ماهل مذ طبق الخبر آفاقها، تحولت إلى خلية نحل. عائلاتها المنقسمة عشائريًّا وحزبيًّا، توحّدت لاستقبالنا. صرتُ حديث الصغير والكبير.

خالتي نعمة دبّت الحياة في عروقها. لبسَت ثوب المناسبات المطرز، ورَشّت عطر حَجّات يضج بالتقوى. حين

تراني قادمًا ستزغرد:

أهلا وسهلا بالعزيز الغالي

بُعدك عني سهَّرني ليالي

بفديك بروحي، وعمري الباقي

تفرِّح أيامي، وتبقى قبالي.

عشرات الذبائح ستذبح، فلا تسمع في بيوت عائلتنا إلا قرقعة الطناجر.

من نافل القول، أنّ العائلة كلها دُعيت إلى الوليمة العامرة؛ فأنا أستأهل وأكثر.

كبير كل فخذ - من أفخاذ عشيرتنا الأكبر في البلد - انتقى ذبيحة تُبيّض الوجه، وحمل سكينًا كي يذبحها أمامي، ثم أخطو فوقها، في نوع من التكريم الذي يليق. سيُدعى إلى الحفل كبار العائلات الأخرى. ستبكي الخراف، قبل أن تُذبح على شَرَفي. ومن يدري، فلربما تمتد الطاولات في الطرق والأزقة، تزهو بالمناسف المكلَّفة بسخاء. وستجتمع القلوب كلها حولي؟

غنيٌّ عن البيان، أنّ فرقة الكشافة أنهت التمارين لعزف نشيد الاستقبال. ستقف عند أول البلد، وما إن أنزل

من السيارة، حتى تُقرع الطبول، وتصدح أنغام السكسيفون والقِرَب. شباب العائلة وشاباتها سيتجمهرون، في صَفين متوازيين، على يمين الطريق ويساره، يجهّزون أكفّهم للزفّة، ويسحجون على وقع غناء الحدّاء، الذي تطوّع لإحياء الحفل:

أهلا وسهلا باللي جاي

صُبوا القهوة، وصبوا الشاي.

يا مرحبا برشيد

طاب الملقى، وحَلّ العيد.

عِزّك والبارود غنّى

يا رشيد، اطلب وتمنّى.

ستلعلع الألعاب النارية والمفرقعات، لتعلن للقرى المجاورة هذا الحدث السعيد.

ستتنافس عائلات عين ماهل في ابتداع أساليب الترحيب المبتكرة.

رئيس البلدية سيَنصب بالونًا ترحيبيًا ضخمًا، أمام مبنى البلدية، كتب عليه (عين ماهل ترحّب بالكاتب الكبير، فخر العرب، الشيخ رشيد).

النسوة بالَغن في التأنّق، وشحَذن ألسنتهن، لاجتراح الزغاريد اللائقة. فِرق الدبكة نسّقت برنامجًا متنوعًا، تمتدّ فصوله، من أول البلدة وحتى بيت المُضيف.

العائلات الأخرى (لا ينقصها شيء من الواجب) زَيّنت مفارق الطرق بلافتات تُظهر عمق أخوة الدم بين العائلات، وأخرى تنطق بالتمجيد بضيف مشهور، سيزيد اللُحمة ارتباطًا وقوة.

كثافة عدد اللافتات وتَقاربها سيَحجب المكتوب في بعضها، ما سيثير اعتراض مُعلّقيها، وتلاسنهم مع واضعي اللافتات الحاجبة؛ لكن رئيس البلدية سيهدّئ النفوس مقررًا: «الضيف سيكون في عالم آخر، يُغنيه عن الصغائر».

❖ ❖ ❖ ❖

الفصل الثالث عشر

قبل أن تغادر السيارة نقطة الحدود، طَلب رشيد من السائق التمهّل في القيادة، واعدًا إياه بمضاعفة الأجرة. كان يصوّر الطريق الأخضر، وكلّ المناطق خضراء، أشجار حمضيات، منَسقة طولا وعرضًا بمسافات مضبوطة بين صفوفها. مزارع نخيل، وأشجار مثمرة، وخضار نضرة؛ مساكن عمال، بيوت فلاحين؛ تنوع ديموغرافي، وعمراني جذاب.

كادت الغبطة تتفجر من قسمات وجهه، لسان حاله يقول «الآن التَحَمتُ بجذوري. هكذا سأخلد، ماذا أطلب أكثر من هذا؟ لم أعُد جزءًا ضئيلا من هذا الوجود، أحسّ الكون كله في قلبي. سعيد أنا حقًا، أزْمِنَتي تواصلَت، في تآلف وانسجام. الآن صرتُ أنا، فمرحى

بالموت ساعة يشاء».

ثم تنبّه من شروده:

-«اتركني أدلّك على الطريق، مثلما كان المرحوم والدي يصفها». قال رشيد.

* «ماشي، تنشوف !!» رد السائق.

وراح رشيد يُشير إلى أريحا، والعوجا وسهل النعجة، ثم قال: «خط السير كالتالي: نتّجِه شمالا. سنمُر بمحاذاة مدينة بيسان، وقريبًا منها منطقة عين جالوت، أتعرِف ما الذي حدث فيها قديمًا؟».

* «طبعًا، الانتصار الكبير على المغول، وكسر شوكتهم، وطردهم من بلاد العرب».

-«أحسنت. سنرى قلعة كوكب، قَطعًا سأزورها. بعدها نصبح في سهل مرج ابن عامر، ثم نشمّل شمالا، ونَمُر بالعفّولة، نتجه يمينًا نحو اكسال، ثم مدخل الناصرة، وبعدها إلى اليمين نحو مستعمرة نتسرات عيليت، ونرقى صعودًا إلى جبل سيخ حتى عين موسى، المدخل الغربي لعين ماهل».

* «يخزي العين عنّك، يا حاج رشيد، حافظ الطريق

أكثر مني».

لم تُكذّب الطريق خريطة رشيد، الذي ذرف دمعة حين قرأ لافتة ترفرف (عين ماهل ترحب بعودة ابنها البارّ الشيخ رشيد).

نزل من السيارة، فاندفع المستقبلون الخمسة نحوه، وقِلة من المارة الفضوليين، الذين توقّفوا لمعاينة المشهد.

طال العناقُ الذي ترجَمته الدموع. خمسة أشخاص التقاهم سابقًا في الأردن، وفي مكة، قدّموا له باقة زهور. لم يجد فرقة كشّافة، ولا فِرق دبكة، لا زفة ولا حدّاء، ولا ما يحزنون. انبعص كَيفُه، حسابات الخيال غير حسابات الواقع؛ رغم أنه كان عليه أن يتوقع، أن وقت الظهيرة وقت عمل ومشاغل، وأن الناس في أزمات معيشية تُغنيهم عن استقباله بحفاوة كرنفالية.

هل تغيّر البشر، أم لأنه غير معروف لديهم من قبل؟ علامة استفهام كبيرة أخفاها رشيد في سِرّه.

تقدّم شابان، حملا الحقائب، ووضعاها في سيارة ابن خاله، أبي بكر.

انطلق ركب السيارات بهدوء، في طريق نظيف، جيّد

التزفيت، تزينه الأشجار والورود على الجانبين، فسعِد رشيد.

كان ابن خاله يكرر الترحيب به، وهو يردُّ باقتضاب، شاردًا مع عمارات يعلوها القرميد، وأخرى مُلبّسة بحجر صخري، محلات تفخر بواجهاتها الزجاجية الثمينة، فيها ما يُغني أهل القرية عن الحاجة إلى التسوق في المدن القريبة؛ فأكّد ما قرره والده ذات زيارة «كل شيء اختلَف، ليست هذه عين ماهل».

لم يجد لافتات داخل البلدة تُرحّب به، ولا بالونًا إعلانيًا يتراقص فرحًا بقدومه. لا خراف تُذبح، ولا طاولات طعام تسد الطريق؛ فأيقن أن العادات تغيرت، وأن ما كان يسمعه من والديه صار في خبر لولا.

توقّف قائد الرتل: «هاظا بيتي يا خال، وإنتي ظيف عندي. تنساش إني ابن عمتك وابن خالك سَوا».

-«بارك الله فيك يا خال، يسلم البيت واصحابو، بس الواجب أنزل عند خالتي، كبيرة العيلة، أحسن ما توخذ ع خاطرها».

* «خالتك نعمة ناطريتك عندي بالصالة، من طيز الصبح،

تفظل».

-«يزيد فضلك، ما قصّرت يا خال».

الخالة نعمة كانت جالسة على كرسي نقّال. عانقها طويلا، واختلطت الدموع بالدموع، ثم قبّل يدها، فلم تُمانع: «اللّه يرضى عليك يا خالتي، الحمد للّه ع سلامتكو، اللّه يرحمك خيّتا أم خليل». وأجهشت بالبكاء.

عانق المدعوين. تولّى ابن خاله التعريف بهم، وهو يردّ: «تشرّفنا». وينسى الأسماء مباشرة. كان يضع يده على صدره أمام النساء المحجبات، ويمد يده للتسليم على غير المحجبات. استحسن المنفتحون حُسن تصرّفه، بينما برَم المتدينون بوزهم، مستنكرين مصافحته النساء، في مخالفة صريحة للشرع المقدّس.

«شيخ مودرن». قالها أبو بكر، فضحك الجميع.

تتابعت كؤوس الضيافة، وعبارات الترحيب والتأهيل، والسؤال عن الأقارب في ديار اللجوء.

مال ابن خاله أبوعبدو نحوه: «يا خال أنا جهزت لك شقة مفروشة، عندي بالدار، كاملة من مجاميعو».

-«ما قصرت يا خال، بارك الله فيكم، فترة قصيرة فقط، حتى لا أُكرر اللجوء مرّتين، وبعدها أَستأجِر، أو أعمّر غرفتين، بكرم الزيتون تبَعنا».

بعد الغداء، طلب رشيد زيارة المقبرة سَيرًا على الأقدام؛ لم يتعثّر بأكوام نفايات ألِفها في العواصم الشقيقة، ولا بمتسولين يتشبثون بأذيال ثوبه. قرأ الفاتحة لجميع الراحلين، وراح أبو بكر يَدلّه على قبور الأقارب. أغمض عينيه، وقرأ الفاتحة، فشعر بلذة التماهي معهم والاندماج.

توقع رشيد بما يشبه اليقين الجازم، أن عائلته كبيرة العدد ستقوم بواجب دعوته إلى ولائم كثيرة. وأنه ـ ولمدة شهر على الأقل ـ لن يوقد في بيته نارًا، إلا لعمل الشاي والقهوة. وأن ابن خاله سيُنَظّم برنامجًا يوميًا، يراعى فيه البدء بالأقرب فالأقرب، من حيث العصَب والنَسب. وستشهد البلدة تجمعات حاشدة، حول الموائد العامرة، والمحبة الغامرة.

صدق حدسه هذه المرة. لكن معظم الحاضرين كانوا ينشغلون بهواتفهم، والبعض القليل يستمع منه، لما

يعانيه اللاجئون في ديار الأشقاء، ولما حققوه من إنجازات في بلاد الشتات، ويتوقع منهم أن يهزّوا رؤوسهم فخرًا بذلك؛ لكن أحدهم علّق: «وإحنا كمان، ولادنا قدّموا للبشرية إنجازات فخمة». وعلّق آخر «معاناتكم عند الأشقاء أنتم السبب فيها، الضيف اللاجئ لازم يقعد مؤدب».

الثالث كان وقحًا بعض الشيء: «اللي يترك دارو يَقلّ مقدارو».

أخفى رشيد انزعاجه، وحاول رتق الموقف المُحرِج: «أسباب خروجنا معروفة، ولا داعي لتكرارها، فأنتم سادة العارفين. لكن، حقيقةً كلنا كنا فخورين بإنجازات أبنائكم العلمية والأدبية».

قاطعه أحد الملتحين: «والدينية أيضًا!!».

-«الخلافة في الأرض لا تقوم بالإنجازات الدينية وحدها، بل بالعلم والتكنولوجيا، بالتزامن مع تطبيق مبادئ الدين الأخلاقية». قرر رشيد.

فقال أحدهم: «كلنا نعرف هذه الفكرة البديهية».

فتمتم رشيد: «تلحس.... ما أدفشك!!».

حدّثهم عن يوميات اللجوء في بعلبك، وكيف تعب والده في تربية أربعة عشر ولدًا وبنتًا. حدثهم عن الأزهر، وما عاناه في الأزهر؛ عن عمله في ليبيا؛ وعن المؤتمرات التي شارك فيها؛ عن مسيرته المهنية، والأدبية، ومقابلاته التلفزيونية.

* «ونحن عانينا مثلما عانيتم، وربما أكثر. على أية حال، نحن نفتخر بك يا شيخ رشيد، تظل ابن بلدنا». قالها أحدهم، فانمغص رشيد مرة ثالثة.
* «ما دام عندك هذا التنوع الفكري والأدبي والديني، فلا بد أن نستفيد منكم يا خال». قالها الشيخ قاسم، وأضاف: «سنرتّب لك، أنا والمشايخ، دروسًا ومحاضرات في مساجد البلدة الثلاثة، فنحن متعاونون، متفاهمون، رغم اختلافنا سياسيا».

-«والله أنا جاهز. أحسنت مولانا، الدين يجب أن يَجمع، لا أن يُفرّق؛ والدّين الذي يدعو إلى الحرب، والحقد، والاستعلاء على الغير، ليس بدين. لقد قضيتُ فترة الدراسة في الأزهر، مشاكسًا للدكاترة، أرفض الأفكار التي تجعل الدين في صدام مع العلم والتمدن

والتطور. الخطاب الديني يجب أن يتبدّل تبعًا لتطور الحياة» ...

وراح رشيد يبهر الحاضرين بتفصيل مشروعه الموجز، لتجديد الخطاب الديني، بما يتماشى مع العصر واهتماماته، ومن خلال التركيز على مستجدات العلم، والتكنولوجيا، ونشر مفاهيم الحرية والديمقراطية والعلمانية وتحرير المرأة.

حين سمع أحد المشايخ لفظة العلمانية، انتفض كالملسوع، وغمز رشيد، مشيرًا إليه بكَفه، كي لا يسترسل، فسادَ هرجٌ بسيط، بدت معه علامات الاستنكار على الحاضرين.

تدخلت شاعرة من عائلته: «وأنا سأنظِم لك أمسية قصصية، في النادي الأدبي، الذي أُشرف عليه».

وضع رشيد كفه على رأسه: «هذا يشرفني، ويبهجني (من تعلّم علمًا فكتَمه، ألجَمَه الله بلجام من نار)».

تضايق رشيد من استخدام الحاضرين كلمات عبرية كثيرة جدًا، مع أن لها مرادفًا في العربية؛ إلا أنه تسامح

في ذلك، كونهم مخالطين لليهود. لكن الذي أزعجه كثيرًا، تلك الأحاديث الجانبية الهامسة بالعبرية؛ اعتبرها مناجاة، يمقتها العُرف والدّين.

طبيعي أن يتهامس البعض، في لقاءات جامعة كهذه؛ ربما حول شخصية الضيف، أو لباسه؛ وربما حول طريقته في الحديث، وحركاته، أو وضعية جلوسه. رشيد يدرك ذلك كله؛ ولكن أن يترافق التهامس مع النظر إليه بطرف العين، ومحاولة إخفاء الفم الضاحك بباطن الكف، فهذا أزعجه حقًّا، وأثار تساؤله واستغرابه، فكان يتأكد من جفاف أنفه/ ضبط ربطة عنقه/وضعية جواربه، حتى لا تكون ساحلة/ لمعة حذائه/ ترتيب أزرار قميصه/سحّاب البنطلون، فيجد كل ذلك مُهندمًا حسب الإتيكيت والأصول. لماذا يتضاحكون إذًا؟

تكرر ذلك في السهرات. أخفى انزعاجه، مبررًّا الأمر، بأن البسطاء الأميين يُعذرون، فنُدرة الثقافة تُنتِج سيّء السلوك. انتقلَت عدوى التهامس والتضاحك، إلى المثقفين والمتعلمين، فأيقن رشيد بأن وراء الأكمة ما وراءها. فكّر في الأمر كثيرًا، وضع احتمالات عدة

لتفسير الظاهرة:

ربما لأنه يبالغ في وصف عصاميته، وبناء نفسه بنفسه، دون عون من أحد، فيعتبرون ذلك تشاوفًا عليهم؛ لكنه لم يُضخّم ذاته، وما قال إلا حقًّا.

وربما يعتقدون أن شهرته الأدبية مُبالَغ فيها، بدليل عدم سماع اسمه في وسائل الإعلام المشهورة، ولم يروا مؤلفاته الأربعة عشر في معارض الكتب. وهذا ليس عيبًا فيه، بل فيهم؛ لأنهم منغلقون محليًّا، ولا يتابعون عالم الفكر والثقافة، خارج حدود القرية.

الاحتمال الأخطر، أن يكون تهامسهم منطلقًا من نظرية المؤامرة، إذ ما الذي يجعل إنسانًا سوِيًّا يترك أولاده وأحفاده في بعلبك، ليستقر في بلد آخر، حتى ولو كان موطن الأجداد؟

أكّد نظرية المؤامرة هذه سؤالٌ وجهه إليه أحدهم: «هل صَرفَت لك دولتنا معاش الشيخوخة، أستاذ رشيد؟».

امرأة ماكرة، متبرّجة، بطّنت الكلام: «خير ما عملت يا أستاذ، والله، جواز السفر يظل أفضل ألف مرة من وثيقة لاجئ».

نظريتا مؤامرة ساذجتان استدرّتا منه ابتسامةً ملحوظة، مع نفخة من منخريه.

النظرية المدمّرة أطلقها شرطي شاب، من أبناء البلدة: «يكثر خير التنظيمات الفدائية، لولا تجنيدها اللاجئين في لبنان، وفَتّ الدولارات، كانوا ماتوا من الجوع».

-«قِرشُ النضال، خير من دولار الذل». قالها رشيد مُبتسمًا.

انتفض الشرطي كي يرُد، فأخرَسه والده «سدّ بوزك، بلا أكل هَوا؛ الشيخ رشيد أشرف من لحيتك!!».

أيقن رشيد، أن تنفيذ المهمة التي جاء من أجلها، يقتضي العمل الجاد، لا قتلَ الوقت بطَقّ الحنك، والمهاترات. فصار يعتذر عن السهرات.

❖ ❖ ❖ ❖

الفصل الرابع عشر

وفى أبو عبدو بوعده. وضع برنامجًا دقيقًا للرحلة إلى شمال البلاد.

أبْعَدَ رشيد أبا عبدو، عن باب السيارة قائلا: «أنا سأقود».

وافق أبوعبدو مبتسمًا: «منذ خمسين عامًا، وأنت تقود، ألم تشبع؟!».

«ومَن يشبع من القيادة يا عزيزي؟!». أجاب رشيد بلهجة واثقة.

بدأ من الناصرة، رأى العذراء تبتسم من بعيد ترحيبًا به. زار كنيسة البشارة. توقّف طويلا أمام لوحات فسيفساء للعائلة المقدسة. هبَط خاشعًا، لزيارة مغارة مريم، في جو مفعم بالغموض، حيث بشّر جبرائيل مريم،

بأنها ستحمل بالمسيح. صعد إلى قبّة زهرة الزنبق الهائلة، التي تشكّل مصدر الضوء للكنيسة. زار السوق التراثي، وجده قد خلع عباءة الجمال، ولبس رداء الحداثة، فصار شبه مشلول. تجوّل في مبنى السراي القديم، حيث كان أبوه موظفاً، في مصلحة المساحة. جلس على الدرج حيث أبوه جلس. وراح يلتقط بالهاتف صور فيديو تذكارية، تشرح عن المكان.

من الناصرة انطلقوا إلى طبريا. مرّ بقرى الرينة، كفركنا، طرعان. رأى قرية الشجرة تتربع فوق التل العالي. ضجّت في ذاكرته وقائع معركة شارك والده فيها. صمد الفلاحون يومها خمسة أشهر، وصدّوا سبعين هجومًا مُركّزًا. وصل جيش الإنقاذ، قال قائدهم للثوار: «يعطيكم العافية يا شباب، كل واحد يروح ع ضيعتو، نحنا راح ندافع عن المنطقة». وعند الصباح، سقطت الشجرة بيد العصابات، المدعومة من الإنجليز.

أكمل السير نحو قرية لوبية، شدَّه الحنين إلى أصدقائه اللوابنة في لبنان، كانوا يتفاخرون بجهاد أهلهم ضد الغزاة. اتجه شمالا نحو قرية حطين، فرأى صلاح

الدين يفرد ذراعيه له. راح يشرح لأبي عبدو كيف وقعت المعركة، وكيف استفاد صلاح الدين من غزوة بدر، في رسم خطته لتعطيش جيش الصليبيين. ثم أضاف: «رائع أن نستفيد من التاريخ درسًا وعبرة؛ ولكن الخطأ القاتل، أن نجعله منهجَ حياةٍ مُقدَّسًا كصانعيه، نتبعهم حذو النعل بالنعل».

أكمل الطريق نحو طبريا، جلسوا يستريحون في مقهى (تتّورِين) على شاطئ البحيرة. قهقه فجأة، فسأله ابن خاله: «مالك تتضاحك بلا سبب؟».

-«كيف بلا سبب؟ (الضحك بلا سبب قلة أدب) ضحكت على إسم المطعم (تتّورين) هذه بلدة لبنانية؛ أكيد صاحب المطعم من جنود الجيش المنشقّ، الذين فرّوا بالبيجامات، حُفاة، عام ألفين. سمعت إن قائدهم فتح مطعم فلافل بالعفولة».

نظر إلى الشرق فرأى هضبة الجولان تمتد أمامه. قال لأبي عبدو: «زرتُ في الأردن قبل سنوات منطقة (الحِمّة) ذات المياه الكبريتية الحارة. اليوم أودّ زيارتها من جهة فلسطين».

توجهوا من طبريا إليها، كانت تحفة طبيعية نادرة، تزهو بجمال المنتجعات السياحية، وبسياح يعومون في حوض السباحة، ذي الماء الحار.

ولكن الجمال الطبيعي تحوّل إلى قُبح حزين، بعد أن شاهدوا أطلال مسجد مهجور يَنتحب.

رأوا نهر اليرموك يتعرّج حول نهاية هضبة الجولان، متجهًا إلى مصبه في نهر الأردن، فحضرَت الأمجاد التليدة إلى الذاكرة.

اتجهوا شمالا نحو صفد، ورشيد يشير بيده نحو قرى فراضية، الظاهرية، الناعمة، فرعم، العلمانية، كفر برعم، الجاعونة؛ قرى مُهجَّرة كانت تصنع الحياة هنا، قبل سبعين عامًا، وأصبحت اليوم خرابًا بَلقعًا .

تهادى صوت رشيد: «سأعتكِف في هذه القرى يومًا ما، كل واحدة منها ترتبط بجمال ذكريات، رواها لي أهلُها المهجرون في لبنان.

انطلقوا نحو جبل الشيخ. ركبوا التلفريك قاصدين القمة. ثم توجهوا إلى (المطلة) . ظهرت لهم قرية كفركلا اللبنانية المحاذية، تذكّر معارك حدثت هنا، فخالَطه

شعور من حزن وغضب. تخيّل بعلبك، وحضرت صورة أولاده أمامه، تمنى أن تحمله الريح إليهم، فدمعت عيناه وعينا زوجته.

في الطريق إلى عكا، رأوا من بعيد قرى الجش، دير القاسي، سحماتة، ترشيحا، الغابسية، والكويكات. في (البروة) ذرف رشيد دمعة على محمود درويش، ثم اتجه نزولاً نحو عكا، مسقط رأس غسان كنفاني، ومنطلق الطريقة الشاذلية.

وقف أمام أسوار عكا، يسترجع التاريخ المجيد. قال لأبي عبدو: «أبي كان يعنقر عقاله أمام الجيران، في بعلبك، مفاخرًا: «أرضُنا هَزمت أعتى ثلاثة جيوش في التاريخ، في عين جالوت، وحطين، وهنا عند أسوار عكا. وستهزِم الجيش الرابع أيضًا».

يعشق رشيد الأماكن التراثية، لم تفُته الصلاة في جامع الجزار. زار متحف الأسرى تحت الأرض، وخان العمدان، وحمّام الباشا.

في حيفا صلى العصر في جامع الاستقلال حيث صلى أبوه، وجاهد ذات ثورة سبقت النكبة.

غمرته السعادة حين رأى حدائق البهائيين، وفي أعلاها قصر (الباب) وقبره. قطعة من جنة مُعلّقة، تحفة معمارية تطوِقها حدائق متدرجة صعودًا.

طلب زيارة مقام الخضر. لم يتغير كثيرًا، بضع غرف حديثة أُضيفت للزوار، لم يذكرها له أبوه حين وَصَف.

فرح بتَنَوّع الزائرين من كل الطوائف، كما فرح أبوه من قبل. شاهد شيخًا شديد بياض الثياب، شديد بياض الشعر، مستغرقًا في التسبيح. شهقَ ورجع إلى الوراء: «يا إلهي، هُوَ هُوَ..هوَ هوَ». قالها في سره.

لاحظ أبو عبدو اصفرار وجهه: «مالك ملخبط في إشي؟» .

-«لا، لا، سلامتك».

كيف سيتحايل عليه الآن كي ينفرد بالشيخ؟

-«أبو عبدو، قوم صلي ركعتين، وادعيلي منشان يعطوني الهوية، وجواز السفر بسرعة».

* «وليش ما تدعي لحالك، ما إنت شيخ؟!».

-«دعاء المؤمن لأخيه بظهر الغيب مُستجاب، قُوم خلّصني».

* «اللهم، أعنّي على هذا الضيف المتطلّب. منذ مئة عام ونحن ندعو، لم يستجب الله لنا، بل كلما دعَونا عليهم، تتضاعف انتصاراتهم علينا. ألَسنا نحن خير أمة أخرجت للناس؟ على أية حال، سأدعو لك، والله يسترك من دعواتي» .

توجه رشيد نحو الشيخ، سلّم عليه: «قرأتُ وبحثتُ كما نصحتَني. ولكنني لم أكشف السر الأعظم».

* «إذًا، أنت بحَثت متسلحًا بقناعاتك السابقة، هكذا ستظل أسيرها. ضعها جانبًا، واسترجع بذاكرتك ما قرأته مِن فكرٍ مُخالِف. أَجزم أنك نوّعت قراءاتك، وامتلكت ذائقة نقدية، هي التي ستقودك إلى كشف السر. تذكّر ما قرأتَه من مؤلفات العرفانيين. هل درست الفيزياء وعلوم الطبيعة؟».

-«في المرحلة الإعدادية فقط، وتابعتُ فيديوهات كثيرة».

* «توسَّع في دراستها قليلا».

شكره رشيد، وخرج مع ابن خاله، نحو مطعم أبو زيد على شاطئ حيفا، لتناول السمك.

* «جهّز نفسك للمفاجأة غدًا». قالها أبوعبدو مبتسمًا.

-«لم أعد أتفاجأ بشيء». قالها رشيد، وصمت مفكّرًا في نصيحة الشيخ الجليل.

❖ ❖ ❖ ❖

الفصل الخامس عشر

بعد الفجر، افتتح أبو عبدو الحديث: «رحلتنا اليوم سياحة دينية ممتدة؛ لكنها خاطِفة؛ ستكون لنا جولات متأنّية، مستقبلاً بإذن الله».

حاول رشيد استلام المقود مَرة جديدة، فاعتذر أبوعبدو: «آسِف، من الآن فصاعدًا أنا سأقود؛ قيادتك بالأمس كانت فوضوية متهوّرة، تجلس وراء المقود كالطاووس».

أسَرّها رشيد في نفسه، ولم يُبدِ امتعاضًا، ثم قال: «معك حق، أنتم الشباب أقدر على القيادة».

انطلقوا من عين ماهل إلى الناصرة، فالعفّولة، فمَجدّو. هز رشيد رأسه: «هل تصدق التاريخ يا خال؟».

* «التاريخ يكتبه المنتصِر، يسرد ما يحلو له، ويؤيد وجهة

نظره، يجعل نفسه إمام العدل والحق، وقد يكون أظلم الظالمين».

-«أحسنت. يقال أن تحوتمس الثالث هزَم أجدادنا الكنعانيين في معركة مجدّو؛ لم يذكر التاريخ كيف وصل من مصر سالمًا إلى هنا؟ المؤرخون يقفزون فوق الزمان والمكان».

مروا بأم الفحم، قرية البواسل، ثم عارة وعرعرة، فكفر قرع.

* «هذه نتانيا عروس الساحل يا شيخ رشيد».

-«أم خالد اسمها يا بو عبدو، أم خالد، شاء من شاء، وأبى من أبى، واللي مش عاجبو يشرب من بحرها». قال رشيد بعصبية ظاهرة.

* «طيب، وهاي هرتسليا، شو بدك تسمّيها كمان؟ أنشأوها عام ٢٤ على إسم هرتزل؟». قال أبو عبدو.

-«صحيح، لكنهم استولوا على قرية الحرم (سيدنا علي) وانشأوا هرتسليا مكانها». قرر رشيد.

توقّف أبو عبدو: «صرنا قريبين من تل أبيب، ما رأيك في أن نزورها؟».

-«لا، لا، اللّه يخليك. خذني إلى القدس».

اتجه شرقًا نحو (ملبّس)، ثم اللد، فالرملة.

استلم رشيد الحديث: «في الرملة أقام والدي شهورًا طويلة، يمسح التلال والوديان، والقرى. في مكتبة البلدية اعتكف قارئًا نَهِمًا. أهداه أمينها كتابًا أحضره معه إلى بعلبك، وقد قرأتُه بتَدَبُّر، فلنزرها الآن. فوجئ بتغيّر جذري طال مبنى البلدية، كان يعلوه القرميد والجمال، فصار مثل أي بناء حديث. مسَح رفوف المكتبة بدمعة حنين، ثم قال «لولا الكتب ما كان أبي، ولا قلت هأنذا».

عرّج على بقايا قصر سليمان بن عبد الملك، والجامع الكبير.

توقّف مشدوها أمام الجامع الأبيض ومئذنته، وقبر الفضل بن العباس، ومقام النبي صالح.

رشيد يروي أدق التفاصيل حولها، وأبو عبدو يهزّ رأسه طربًا وإعجابًا: «كأنك مولود هنا يا مولانا، لا في بعلبك».

أكملوا الرحلة نحو عمواس، فقال رشيد: «هذه بلد

الطـاعون الشـهير، الـذي فتـك بالعشـرات مـن الصـحابة والتابعين».

* «طيـب، مـا الـذي أوصـلهم إلى هنـا، وهنـاك وهنالـك؟ الـدعوة إلى الـدين تـتم بالتبشـير، بالحكمـة والموعظـة الحسنة، لا بالقتال ولا بالاحتلال». تساءل أبو عبدو.

-«هـذا موضـوع يحتـاج نقاشًـا طـويلا؛ ونَشْـره قـد يُشـعل حربًا يطير فيها رأسك. دعني أتمعّن بجمالات بلادي».

وصلوا إلى أبوغوش، توقف أبوعبدو، أشار إلى قرية القسـطل، وراحـوا يقـرأون الفاتحـة علـى روح عبـد القـادر الحسيني، ورفاقه الشهداء.

أكملوا السير، فَدلّهم رشيد على قرية دير ياسين؛ قـرأوا الفاتحـة علـى شـهداء المجـزرة، ثـم صـمتوا بعـد أن دخلوا القدس.

نفحـة إيمـان جامحـة تملّكـت كيـان رشـيد، تمثلـت القداسـة كلـها أمامـه والتـاريخ. مشـى خاشـعًا علـى بـلاط المسجد الأقصى، حيث يحتشد المصلون هنا يوم الجمعة. رفع بصره، فانشرح صدره لقبّة الصخرة؛ رآها من قبل في نشرات الأخبار، ورآها يوم حُرق المسجد، ولم يُحرّك أحدٌ

ساكنًا. قُبة مذهبة، نصف كروية الشكل، تغطيها صفائح النحاس المطلي بالذهب، ويعلوها هلال ذهبي. هي أقدم معالم العمارة الإسلامية، ثُمانية الشكل، ترتكز على رقبة دائرية، يزينها من الخارج قيشاني، يحمل زخارف كتابية لآيات سورة الإسراء.

أخبَرهم رشيد، أن المسجد الأقصى وحده يحتاج يومًا كاملا، للتعرف على معالمه البالغة مئتين؛ فهو يضم المساجد والقباب، الأروقة والمحاريب، المنابر والمآذن والآبار، وغيرها.

ويشمل المسجد الأقصى كُلا من قبة الصخرة المشرّفة (القبة الذهبية) الموجودة في موقع القلب منه، والجامع القِبْلِي (ذي القبة الرصاصية) الواقع أقصى جنوبه ناحية القِبلة.

ابتسم أبو عبدو: «تسلبني دور الدليل يا مولانا!! فماذا تبقّى لي؟».

-«شوفير تاكسي».

* «مقبولة منك، مع احتفاظي بحق الردّ، في الزمان والمكان المناسبَين».

-«لن ترُدّ».

شربوا ماء زلالا من سبيل قايتباي، المسقوف بقبة حجرية رائعة. تجوّلوا سريعًا في الأنحاء. دخلوا، صلوا ما تيسّر، زاروا الصخرة المباركة والكهف الصغير، ثم مشوا في درب الجُلجلة، تَحفّهم البركات. دخلوا كنيسة القيامة، توقفوا أمام قبر المسيح، تمتّعوا بلوحات فسيفساء فوق الهيكل، تُمثّل مشهد الصلب.

تجوّلوا سريعًا في السوق القديم، اشتروا هدايا تذكارية، وكعكًا تراثيًا تشتهر القدس به. تغنّجت أم محمود: «أبو محمود، خلينا نتفرج شوية عالمحلات!!».

أيقن رشيد بأنها حين تناديه بكُنيته، لا يكون ذلك نوعًا من الاحترام، بل للتدليع الابتزازي، التودّدي المؤقت؛ وبأن صندوق السيارة سيَنِخّ، ويهبط تحت وطأة حقيبتين مملوءتين بالهدايا، للأبناء والأحفاد، والإخوة والأخوات، الأحياء منهم والحيّات. كيف سترسلها إليهم في الأردن ولبنان؟ هذا سؤال سخيف. ستجد الوسيلة لاحقًا، بكل تأكيد؛ هنا لن ينقصها الذكاء.

لا تكتمل الرحلة دون زيارة كنيسة المهد في بيت

لحم؛ حجارتها القديمة تثبت تجذرها في المكان. دخلوا، فأشعل رشيد شمعة في مغارة الميلاد. كشّرت أم محمود كشرة ملحوظة: «لا يجوز هذا شرعًا».

-«تكريم طفل المغارة وأمّه مريم بشمعة لا يجوز؛ أما الإسراف والتبذير في شراء الهدايا، رغم الظرف الذي نمر به، فَواجب. هكذا نأخذ ببعض الكتاب، ونكفر ببعض؛ فِعلا (إن كيدكن عظيم).

تدخّل أبو عبدو، وأقنع الزوجين بضرورة تأجيل التلاسن، والمُناقرة، ووجوب السكوت في مقام مقدس.

حاوَل أبو عبدو لعب دور المرشد السياحي، بقدر ما يعرف، وكان رشيد يصحح له بعض المعلومات. حدّثهم عن برك سيحان، قلعة البرك، دير الجنة، المتحف. وكرّر قائلا: «سنزورها مطولا في رحلة تأتي».

من بيت لحم توجهوا إلى الخليل.

على مشارف الحرم الإبراهيمي فوجئوا بحاجز عسكري. اجتازت السيارة الحاجز قليلا، فلقّم الجندي السلاح، تأهّبًا لإطلاق النار. اعتذر أبو عبدو بالعبرية، شارحًا له أن الفرامل هي السبب.

تمَقرَف الجندي استخفافًا بسيارة أبي عبدو القديمة نوعًا ما. تضايَق من حجاب أم محمود المبالغ فيه، واشمأز كثيرًا من كشرة رشيد، وتَمتمَتِه؛ فَهِم منها شتيمة مؤذية. أمر أبا عبدو أن يصُفّ سيارته يمينًا.

طلب الهويات. أعاد لأم محمود جواز سفرها، مبتسمًا: «أهلا، أهلا بأهل الأردن».

كان رشيد ينظر إليه بقرف واضح، فأشار اليه بيده كي ينزل من السيارة. اقتاده إلى غرفة جانبية، فتّشه بدقة، ثم سأله الكثير من الأسئلة، في انتظار تفتيش السيارة قطعة قطعة.

نصف ساعة من الانتظار في الحر المقرف؛ كرهت معها أم محمود الرحلة كلها. فقالت «أهذه هي الجنة الموعودة التي حلمتَ بها؟ أرأيت كيف نهَر الجندي أبا عبدو، رغم أنه مُواطن مثله. سحَب أقسام سلاحه لأننا تخطّينا حدود الحاجز بِشِبر واحد؛ ماذا لو تخطيناه بشبرين؟».

ثم وجَّهت حديثها إلى أبي عبدو: «تظنون أنكم تشعرون بالمواطنة والأمان هنا، واهمون أنتم. يستطيعون

طردكم من البلاد خلال أسبوعين فقط، هكذا بكل بساطة، يفتعلون مجزرة بطلها مُستعرِب، يفجّر كنيسًا في هرتسليا، فتتعالى الأصوات العبرية، مطالبة بطرد العرب. يجتمع الكنيست، يُصدر قانونًا نافذًا غير قابل للرد من الحكومة، يقضي بأن الكيان دولة يهودية، ولا مكان لغير اليهود فيها. المجزرة الأولى غير كافية كمبرر، فيُدفع مستعرب أكثر شراسة ودموية من الأول، يفجّر شاحنة تحصد العشرات في عسقلان، فيَحمِل الصغير والكبير السلاح، وينقضّون على القرى العربية، يدمّرون ويقتلون، فتُعقد الصرر، تُفرّغ القرى والمدن من غير اليهود، ثم تُفتح الحدود العربية لكم كلاجئين، وأهلاً بكم في بيتنا ببعلبك».

* «مستحيلٌ حدوث هذا، سنموت واقفين في أرضنا، ولن نرحل». أكد أبو عبدو.
* «أحسنتَ، هذا هو المطلوب، أن تموتوا، لا فرق على الإطلاق، واقفين أو منبطحين». ردت أم محمود.

هزّ أبو عبدو رأسه مرارًا بثقة «نحن متجذّرون في الوطن؛ تعلّمنا الدرس من النكبة والنكسة، لن نرحل».

أمالت أم محمود رأسها يمنة ويسرة: «الذي شاهدناه، في رحلتي الأمس واليوم، وطن آخر؛ لا يشبهنا، ولا يُشبهكم، ولا يشبه ما حكاه الأهل لنا».

ترك أبو عبدو المقود، صفّق لأم محمود: «محللة استراتيجية مثل زوجك، «حقًا إنّ زوجة الأديب أديبة».

زاروا قبر أبي الأنبياء؛ هالَهم ارتفاع حجارته التي قدّرها رشيد بسبعة أمتار.

أمام قبور ابراهيم، واسحق، ويعقوب، وزوجاتهم، وقفت أم محمود، تقرأ لهم الفاتحة والصلاة الإبراهيمية؛ فضحك أبومحمود: «تترحمين على المغفور لهم؟! الأَولى أن يقرأوا هم الفاتحة لنا، ويُصلوا علينا، ويسلموا تسليما. هل أنتِ متأكدة أنهم عاشوا هنا؟».

أَسكَتَه أبو عبدو: «يا شيخ رشيد، أجِئت تزور البلاد، أم لِتُبلبل عقول العباد؟

ثم غيّر الحديث: «سنتّجه الآن إلى رام الله، فجهّز لسانك يا مولانا».

أصرّ رشيد على زيارة ضريح الختيار؛ قرأ الفاتحة؛ هزّ رأسه بأسى على ماضٍ تولّى، وماضٍ لم يمضِ، ما زال

يُنتج الحاضر ويقود خطاه.

تذكّر موقفًا جَمَعه به في بيروت ذات نضال، فقال: رحمه الله.

وجد أبو عبدو الفرصة سانحة: «ما رأيك بأن نغيّر الجو، ونطرق باب السياسة؟».

ردّ رشيد بكلمات متلاحقة: «السياسة خساسة، نخاسة، رئاسة. ما خرّب بيتنا، وفرّق شملنا، إلا السياسة. دعني أَعُبُّ مفاتن بلادي».

تجوّلوا في المدينة جولة سريعة. غَمَره سرور لا يوصف، وهو يقرأ لافتة، تُرحّب بزوار معرض الكتاب، في المكتبة الوطنية، برام الله: «توقَّفْ يا خال، دعنا نستطلع المعرض ولو بزيارة خاطفة، روحي مُعلقة بالكتب». قال رشيد.

عند المدخل، وقفت زوجته تتأمل أعلام الدول العربية المشارِكة، وهي مُنَكسة، ذابلة، بسبب انعدام الريح.

شدَّها رشيد من يدها ممتعِضًا: «دعينا ندخل».

أمضى دقائق من بهجة وحبور. عانق صاحب الدار التي تنشر كُتبَه. اشترى منها نُسخًا؛ سيهديها لمن تعرّف

إليه من مثقفين في عين ماهل. لم ينس نصيحة الشيخ الجليل، اشترى كتاب (الكون الأنيق) لبرايان غرين. وكتاب (الكون في قشرة جوز) لستيفن هوكينغ، وكتاب (رسالة في اللاهوت والسياسة) لسبينوزا.

فوجئ برسام ينهمك في الرسم، يتجمهر حوله بعض الذوّاقة، وخلفه لوحة كُتِب عليها(خذ لوحتك في عشر دقائق. التكلفة عشرة دولارات). ذُهل رشيد لبراعته، فسأله: «هل تشارطني؟ أُعطيك مئة دولار إن رسمت لي لوحة محددة، في عشرة أيام، وإن فشِلتَ، تعطيني أنت عشر دولارات لا غير».

* مع أن الشرط حرام، ولكن قَبِلت، ما موضوع اللوحة؟

-خارطة الضفة الغربية مع المستوطنات.

* هههههه. خذ، هذه عَشرة دولارات.

غادروا المعرض ضاحكين، ورشيد يعدد الأماكن السياحية في منطقة رام الله: البلدة القديمة، البرج الإفرنجي، المعصرة القديمة، محط المدافع؛ فقرر أبو عبدو : «والله لولاك، ما سمعتُ بهذه الأماكن».

هل يُعقل أن يزور نابلس الجميلة، بطبيعتها الساحرة،

دون أن يَسمُط صحنًا كبيرًا من كنافتها الأشهر من نار على علم؟ ودون أن يأخذ معه هدية لمضيفه ولخالته؟ مال إلى ابن خاله: «ما رأيك بشخص مصاب بالسكري، يبطش بالحلويات، وحين تُقدِّم له الشاي، يُشدّد على أن يكون بدون سكّر، ثم يُخرج من جيبه حبّة سُكّرين؟!

ضحكت زوجته: «بدي آكل كنافة نابلسية، حتى لو بدي أموت».

تنحنحَت، فقال رشيد: «شايفة، لو بتتشردقي، وتختنقي، ما رايحة تشوفي السوق. يا ريتك شاطرة بالتوفير مثل شطارتك بالتبذير».

فتحت فمها كي تردّ له الكلمة كلمتين، والتهمة تهمتين؛ لكن أبا عبدو، سبقها وقال: «تفضل مولانا، اشرح لنا عن ذلك الجبل».

-هو جبل جرزيم، معبد السومريين هناك، وهو تحفة أثرية؛ سنزوره بالتأكيد، يومًا ما، ونعرج على بئر يعقوب، كي أشرح لكم قصة المسيح حين التقى المرأة السامرية. وسنزور تل بلاطة وآثار نابلس القديمة.

أكملوا المسير شمالا فقرأ رشيد لافتة تشير إلى

(برقين). قال: «يا خال برقين تناديني، مذ قرأت في الإنجيل قصة شفاء المجذومين العشرة، على يد المسيح».

زاروا كنيسة مار جرجس الخِضر، المتربعة على سفح هضبة خضراء، قريبة من برقين. اكفهرت أم محمود، وقد أبطأ التردد حركتها على الدرج الصاعد إلى الكنيسة. نكاية بها، أشعل رشيد أربع شمعات؛ فهذه التحفة الأثرية رابع الكنائس المقدسة، بعد كنيسة القيامة والمهد والبشارة. شبَك رشيد أنامله خلف رأسه، وأغمض عينيه لحظة، علّ الشيخ الجليل يظهر أمامه، كما اعتاد على الظهور من قبل، لكنه لم يظهر. أيقن أنه لا جديد يُخبره به، فانصرف.

جنين كانت تنتظر رشيد. بينهما عشق مُتبادل، وفخر يتجدد. تنهّد في شوارعها الجميلة، ترحَّم على المجاهدين قديمًا، وحديثًا. تأوّه بعمق، هازًا رأسه: «لا يُعيد التاريخ نفسَه إلا في بلادنا، الأسباب تتكرر والنتائج كذلك. آه، لو تدري ما يعنيه لي مخيم جنين، يا أبا عبدو؟».

* ما يعنيه لنا جميعًا، لا لكَ وحدك. سنتوجّه إليه، لا بد

أن نسأل أحد المارة».

-لسنا بحاجة إلى دليل يا أبا عبدو، المخيمات تتشابه.

شاهدوا من بعيد أبنية متراكمة، يحضن بعضها بعضًا، تبوح بالفقر والحرمان، جدران سوريالية اللوحات، تزخر بطلاء مُقَشّر، باهِتِ الألوان، وإعلانات سُلطوية: ملك الفلافل، مسَخّن الأمراء، زعيم الكنافة. ملك ملوك البقلاوة.

فقال رشيد: «هذا هو المخيّم».

أسند خَدّه بكَفّه، وراح يقرأ شعارات تزاحَمَت على جدار واحد:

واحدٌ منا سيبقى هاهنا.. أنا.

أبو الجماجم مرَّ من هنا.

الغضب الساطع آتٍ، وأنا كُلّي إيمان.

التفاوُض هو الحل.

إسراطين هي الحل.

الإسلام هو الحل.

ضحك عندما قرأ المعادلة الحسابية:

تفاوُض × مقاومة = صِفر.

الشعار الأكثر إبداعًا كان (لا أريد دولة فلس..طين.. ية) .

لم يفُت أبوعبدو التذكير بجمالات جنين: تل تعنّك، خربة بلعمة، ونفق المياه فيها.

«نسيتَ غابة أم الريحان الساحرة» أكد رشيد، فصفّق له أبو عبدو: «كأنكم لم ترحلوا».

قفلوا عائدين؛ تَلَوّت السيارة كالافعى بين الدشم الاسمنتية، المُؤدّية إلى حاجز الجَلَمة، شمال جنين؛ قرأ رشيد على صفحتها بطولات الفداء والتحدّي. لم يكترث بمضايقة الجنود، وبالتفتيش الدقيق؛ معتاد هو عليه، هنا، وهناك، وهنالك.

سلكوا بعده طريق العفولة ـ الناصرة ـ عين ماهل.

رحلة كانت حلمًا فتحقّق. رشيد دائمًا تتحقق لديه الأحلام؛ تبدو من بعيد زاهية متألقة بثوب الفرح والنجاح؛ تقترب منها فتجد المنغصات. فرح بهذه الرحلة الروحية، رغم امتعاضه من جنود ومجندات غرباء، يسألونه بالعبرية عند الحواجز، يصمت قهرًا وجهلا بلغتهم، فيبادر أبوعبدو للإجابة. يطوقون المقدسات بالمدرعات، يقطعون

صلاته بكلابهم البوليسية، فيتمنى لحظتها أن يفجره الله بهم، من حيث يحتسب.

بعد العودة إلى بيته، راح يسترجع مشاهد الرحلة، يحمد الله عليها، ويبعث لأولاده، وأصدقائه كل الصور والفيديوهات. لم ينس التباهي برحلته، وبجمالات بلاده، عبر الفيسبوك.

نسي أن رجالات الأمن العرب صاروا مثقفين، يتقنون التعامل مع وسائل التواصل، فانتفخت ملفاته لديهم، وتضخّمت التساؤلات حول عودته المفاجئة.

الفصل السادس عشر

ماذا فعلْتِ برشيد يا بعلبك؟!».

يشرب الشاي فيتأفّف: «ماء بعلبك أصفى!».

يتسوق، فيتحسّر: «خضار بعلبك أنضر، فاكهتها ألذّ، اللحم أشهى، واللبن أطيب».

تَغيَّر مذاق الطعام، صارت زوجته تغليه بدمع العيون.

تَضاعف ولَعُها بالهاتف. يخرج رشيد لصلاة الظهر، وتتفرغ هي لغرفة الشات، تطمئن على أولادها، تضحك مع أحفادها، ثم تعقد جلسة صبحية، مع جارتها، أم سليمان، في بعلبك. تشربان فنجان قهوة، على وقع لهاث المَلَك، وهو يُدوّن صفحاتٍ مملوءةً بالغيبة، والتذمّر والشكوى.

يعود رشيد إلى البيت، يغلي قهوته المحبّبة، يجلس مع

السيجارة، ويقرأ بنَهم.

بدأ بكتاب (رسالة في اللاهوت والسياسة). سجّل الخلاصة على عدة صفحات.

هكذا فعل في الأسابيع التالية مع كتاب (الكون الأنيق) وكتاب (الكون في قشرة جوز). فتح عينيه على اتساعهما، وكأنه عثر على ضالّته الكونية.

لخّص أفكار الكتب الثلاثة في فصل عنوانه (مِن الحلاج إلى ستيفن هوكينغ) وقرر أضافته إلى فصول مخطوطٍ حَمَله معه من بعلبك. الوصف هنا ليس دقيقًا، المخطوط لم يكن فصولا مبوّبة، ولا مطبوعًا؛ بل بخطّ اليد، وخطّ رشيد كخَرابيش الدجاج. ولم يكن مُرقّم الصفحات، موضوعٌ مِن هنا، وفكرة من هناك، مضامين لا تربطها وحدة الموضوع، ولا منهجية التأليف. القاسم المشترك بينها، أن الكاتب واحد، هو رشيد بن محمد بن خليل. هي مجرّد قصاصات، تحوي ما توصل إليه من أفكار تجديدية، حول اللّه والكون والإنسان؛ اختار لها عنوانًا مشوّقًا(السر الأعظم).

علَّمته التجارب أن يحسب حساب الشر قبل الخير،

فالبشر تطوّروا من ثعالب؛ والمصائب كالرزق، تأتيك مِن حيث لا تحتسب. مَن يدري بما تخبّئه الظروف من مفاجآت؟

هل هو بمنأى عن ذلك في عين ماهل؟

قرر تصويرَ الكتاب بُعيد إنهاءِ تأليفه، وإرسالَه إلى ابنه، بعدة وسائط انترنتية، لِيطبعه في لبنان، كَيلا يضيع جهد السنين؛ لكن المخطوط لم يكن مجموعًا في مكان واحد، أوراق محشورة بين الكتب، وأخرى في دروج المكتب؛ حتى في المطبخ، نَعم، في المطبخ، تتفاجأ زوجته بأوراق فوق فناجين القهوة. تكنس ما تحت السرير، فتجُرُّ المكنسة أوراقًا من كتاب زوجها الحريص.

ليس هذا فحسب، كان الكتاب بحاجة إلى ترتيب الأفكار، وإعادة صياغة الجُمل. جهد كبير يحتاج منه التفرغ والتركيز؛ ولكنه كان ينشغل بأمور الدنيا، يُحلحل ما يعترضه من عقباتها الكأداء، ويلهث في تلبية طلبات زوجته، التي لا تنتهي. يتأفف، وهو يُردّد في سِرّه: صدَق من قال (قاطع الطريق يُخيّرك بين مالك وحياتك،

أما الزوجة فتسلبهما معًا). جُل وقته كان يقضيه في المناكفات الفكرية، والنقاشات السوفسطائية. الغريب أنه كان دائم الحديث عن كتابه، وكأنه شاهَد النور مأتلقًا بين دفَّتين، يروح يستشهد بمقولات منه، تُناسب المَواقف.

كلما هاتَف ابنه، يسأله: «بابا، متى سترسل إليّ الكتاب، كي أدفع به إلى دار النشر؟ صاحبُ الدار قرع رأسي، فهو ـ على ذمّته ـ متلهفٌ لنشر تُحفتك الفريدة، وأنا ـ على ذمّتي ـ أُسمّيها دار النشل». فَيَعِده رشيد، بأنه سيرسل إليه المخطوط منقّحًا مصحّحًا، لأنه غير مكتمل؛ تنقصه زبدة البحث، التي تتضمن السر الأعظم؛ وأنه ما زال بحاجة إلى بعض الوقت، كي يصوغه كنظرية؛ ولربما أدخل عليه بعض التعديلات؛ فالأفكار تتطور، والقناعات تتغيّر؛ فمن لا يُعدّل قناعاته الفكرية، بحسب تطور العلوم والظروف، تتوقف لديه ساعة الزمن.

الفكرة الجديدة كالثوب الجديد؛ ما إن يشتريه المرء، حتى يُصِر على لبسه، والتبختر به أمام الناس. هكذا كان رشيد يردد. لذا رسم خطة التحرك للتبشير

بأفكاره. مدة التبشير لن تكون طويلة. مَن يدري؟ فلربما ترفض السلطات مَنحه الهوية وجواز السفر، فتُرحّله. هي لا تتورع عن ترحيل من يحملون جنسيتها منذ الولادة، فهل ستتردّد في ترحيل ضيف تراه غريبًا، طويل اللسان؟!

المساجد في البلدة ثلاثة. بدأ بأقربها إلى البيت، وجد الإمام منفتحًا فكريًا، مثقفًا، هدفه تعليم الناس، وتربيتهم، و لا مانع لديه من مشاركة عرب ال ٤٨ في الحكم، كتابع مأمور.

انتقل إلى مسجد آخر، فوجد الشيخ متهاونًا في الجمع بين الصلوات؛ أعجبه هذا التساهل كثيرًا؛ ولكنه اكتشف، أن اكتظاظ مسجده مردّه إلى عملية جمع الصلوات، لا إلى علم الشيخ وثقافته.

المسجد الثالث كان هو الأبعد، والوصول إليه صعبٌ مشيًا على الأقدام. وجد الإمام متشددًا؛ يدعو إلى عدم الانخراط في دولة تعتبره وقومَه موضوعين على قائمة التهجير، حين تسمح الظروف؛ ووجد المصلين متحمسين لأفكار إمامهم. قال: «من هنا المنطلق».

بدأ شهر الصوم، فصار يشدّ الرحال إلى هذا المسجد

الأنسب. أعجبه الإمام، يصغره قليلا في السن، معتدل البنية، فوثق به، لأن شعاره الدائم (لا أثق أبدًا بشاعر سمين، ولا بشيخ سمين).

شيخ وقور رصين، خفيف اللحية، يخطب الجمعة ببذلة وربطة عنق. سيارته عتيقة الطراز.

صار يقَدِم الشيخ رشيد للصلاة، فيطرب المصلون لجمال ترتيله، ويزداد عدد المصلين تباعًا، رغبة في الاستماع إليه.

تجاسروا على الإمام «يا شيخ، دعنا ننتفع بعلم الشيخ رشيد».

صعد منبر الجمعة بلا عمامة ولا جُبّة، اختار من السيرة النبوية غزوة الأحزاب. شرح فكرة الخندق، مؤكدًا أن التنظيم المدروس، والعمل التعاوني الدؤوب المخلص، أنتج النصر في تلك الغزوة، وينتجه في المعارك كلها. استشهد بالمصلحين، وكبار المنظّرين، الذين صار أتباعهم اليوم يُعدّون بالملايين، ومنهم الأنبياء.

تهللت وجوه المصلين، أثنوا على أسلوبه الجذاب في الخطابة؛ ما عاد ينعس أحدهم أثناء الخطبة، ولا ينام.

إمام المسجد امتدح ذكاء رشيد: «أعجبني انتقاؤك الكلمات المعبّرة عن الأفكار تلميحًا، لا تصريحًا».

في الدروس التي تَلت ركَز على الأمور الأخلاقية. أكد أن سببَ تخلّف أيّ أمة أخلاقيٌ بالدرجة الأولى، خللٌ في التربية والتعليم، لُبْس عباءة الأولين، تقمُّص فِكرهم، وقعودٌ عن التجديد.

كان يربط مواضيعه بالمسجد الأقصى المحاصَر، حتى وإن تحدث عن الوضوء، يروح يدعو: «اللهم ارزقنا الوضوء في الأقصى مُحرَّرًا».

تودّد إليه شابٌ، عيناه تلمعان ذكاء، كان يتبعه من مسجد إلى مسجد، ومن محاضرة إلى أخرى، فنشأت بينهما صداقة متينة.

رشيد سريع الوثوق بالرجال؛ يكفي أن يجد أحدَهم هادئ القسمات، وسيم الطلعة، حتى يدلق في أذنه كل ما يعرف.

كان يتعمد الجلوس إليه بعد انتهاء الدرس، يسأله أسئلة منوّعة عميقة، فيفرح رشيد بالإدلاء بالتصريحات.

في بادئ الأمر، توقّع رشيد أن يكون مُكلّفًا

بالتجسس عليه؛ لكنه بعد زيارته في بيته، وجد صور الشهداء تزين الحائط، فوثق به.

لطالما دُعي في السابق إلى مقابلات متلفزة حول مجموعاته القصصية. مُعِدّو البرامج لا ينسون، جلبوا رقم هاتفه عبر مراسليهم، طلبوا منه تصريحات مقتضبة حول مشاعره وأهداف عودته. كانت إجاباته متّزنة مدروسة.

شعر بالرضى، لانطلاق العربة نحو الهدف.

نسي أن شياطين الإنس يحملون العصيّ لعرقلة العجلات.

❖ ❖ ❖ ❖

الفصل السابع عشر

رواد المسجد انقسموا فريقين: فريق ضئيل، كَرِه جرأته في انتقاد ما علق بالدين من أساطير وإسرائيليات، وتفسيرات سطحية للمفاهيم العقائدية.

كرهوا تصوُّره الجديد المستغرب لقصة بدء الخلق، وأن (آدم) اسم جنس، لا اسم علَم؛ هو رمز لملايين البشر، الذين تطوّروا معًا في جميع أنحاء العالم، حسَب نظرية دارون المثبتة علميًّا، وحسَب عدة آيات في القرآن. تطوُّر البشر من أب واحد، وأم واحدة، مستحيل علميًّا، لأنه لن ينتج الاختلاف والتنوع البشري الذي نراه اليوم.

تطرق إلى أكذوبة قصة بني إسرائيل المذكورة في الكتب المقدسة، التي كُتبت في بابل أيام السومريين. وكانت الصاعقة حين أخبرهم، أن موسى واليهود لم

يكونوا في مصر يومًا، فالمكتشفات الأثرية في مصر ذكرت كل شيء، عن معتقدات المصريين القدماء وعاداتهم؛ لكنها لم تذكر حرفًا واحدًا عن وجود اليهود في مصر، وعن طردهم إلى سيناء، ودخولهم فلسطين. وكان يردّد جملة يطرب المستمعون لها (نحن الأصليون وهم عابرون).

الغالبية العظمى من المصلين أحبّت طروحاته الجديدة، المؤيَدة بالأدلة العلمية المنطقية القطعية، وراحوا يطالبون إمام المسجد بمنحه حرية أكبر في إعطاء الدروس.

كراهية بعض المصلين له، أكدت أن أسلوب الصدم الذي انتهجه سابقًا لن ينفع. لا بد إذًا من خطة جديدة.

حدّد درسًا يوميًا بين صلاتي المغرب والعشاء.

وضع جدول دروس منوّعة المواضيع؛ قرر فيها تمرير أفكاره بأسلوب مُمَوّه، ظاهره اعتماد التراث، وباطنه يضج برفض الأسطوري، والساذج منه. وهو في كلا الحالين، يؤيد الفكرة ونقيضها من الكتاب والسُّنة، محتجًّا بأن القرآن حمّال أوجه، وهذا ما جعل علماء

السلف يلجأون إلى التأويل، وابتداع علم الناسخ والمنسوخ، للتوفيق بين الآيات المتناقضة.

طلب أحدهم الكلام: «معنى ذلك، أن الدين حاليًّا لم يعد يُسرًا، وقد طُمس جوهره البسيط، تحت ملايين الدراسات، والأبحاث، وعلوم الدين التي قيل إنها ضرورية».

-«نعم، طُمس جوهره البسيط، الذي تلتقي عنده كل الأديان: إيمان واستقامة. نظرية وتطبيق.

النظرية قوامها إيمان تسليمي بالغيب. والتطبيق سلوكٌ مستقيم، يُترجِم هذا الإيمان. ولينطلق الإنسان بعد ذلك لإقامة الخلافة في الأرض. والخلاصة: (كن إنسانيًّا، واعبد ما شئت).

انتقَد أحدهم قدرة المقاومة على التحرير، قائلا: «موازين القوى غير متكافئة، دماء الشهداء تذهب هدرًا، والبيوت تُدمَّر».

شرح له رشيد، أن المقاومة تديم شعلة الصراع متّقدة، تستنزف العدو، وتمنعه من النوم براحة، والشعور بالاستقرار والأمن.

شرح للمصلين أن مطالبتنا بأرضنا لا يجب أن تلبس ثوب الدين فقط. هذا الثوب عُرضة للنقد والنقض معًا، لأن دينهم يسبق ديننا زمنيًّا. نحن نسبقهم في زمن التجذر بالأرض، ككنعانيين فلسطينيين. توراتهم يعترف بهذا، وقرآننا يؤكد (قالوا يا موسى إن فيها قومًا جبارين، وإنَّا لن ندخلها ما داموا فيها، فإن يخرجوا منها، فإنَّا داخلون).

زاره إماما المسجدين الآخرين، الغيورَين على المصالح المشتركة: «آراؤك السياسية تخالف سياسة الدولة، وتُعرّضك للسجن، أو للطرد خارج البلاد. آراؤك الدينية تخصّك وحدك، تطرحها في جلسات مغلقة مع أصدقائك، لا على منابرنا. آخر ما كنا نتوقعه، أن تعود كي تزعزع إيماننا، وتصفنا بالقطيع، حين رحت تكرر المقولة المشهورة (حين تنضم إلى القطيع، تشعر بالقوة، لا لأن فكره صحيح، بل لأنك تحظى بحمايته).

أمامك خياران: أن تمتنع عن التبشير بأفكارك الهدّامة، أو أن تعود من حيث أتيت».

إمام المسجد البعيد، كان بين نارين حارقتين: التقليد

والتجديد، فاختار الحياد، تاركًا لرشيد حرية اتّخاذ القرار الأسلم.

احتار في أمره، لم يكن يتوقع هذه الحدّة في المواجهة.

لم يقف الأمر عند هذا الحدّ؛ تضاءل زوّاره، حتى اقتصروا على بعض الأقارب، على سبيل المجاملة، والإشفاق عليه من الوحدة. صار يمارس رياضته الفضلى، يمشي وحيدًا نحو نبع شيعين، جنوب البلدة.

مشوار يومي صار سنّة مؤكّدة، بعد العصر يحمل في يده كتابًا، وفي قلبه سلّة ذكريات. يستند إلى جذع شجرة تين دهرية، لطالما تغنى والده بها، يشرب الماء الزلال، يقرأ ويقرأ، ثم يصاحب جدولا يعزف مع الحجارة سيمفونية الفرح، ولحن الخلود.

يجلس قرب بركة البَجّة، يتذكر نبع البيّاضة في بعلبك، ويكمل التنزه برفقة الجدول، نحو أحراش سرطبة، يتمطّى فوق العشب النديّ، يشبك كفّيه تحت رأسه، يتنسّم عبير السرو، يطرب لزقزقة العصافير، تشدو له نشيد العودة. تعضّه نملة فيبتسم للقُبلة، تلسعه

نحلة فلا يجفل، يمسح من ريقه مكان اللسعة فيشفى. يسرح مع السهل، ناظرًا إلى البعيد، يسترجع وضْعه الحالي والخيارات المتاحة.

خمسة ضُغوط تهدّ الجبال: تهديد المتعصبين له، شعوره بالوحدة، وثلاث نصائح.

نصيحة صديق فيسبوكي: «لا تجعل حياتك وجعًا متواصلا، لا سعادة بلا تقدير، ارحل حالما تدرك أنك أصبحت صِفرًا على اليسار».

زوجته انفجرت في وجهه قبل قليل: «ها قد عدنا، عانقتَ خالتك، تعرفتَ إلى أقاربك، فأين هم؟ كل واحد مشغول بحياته، وبهمومه التي لا تُحصى. زرتَ البلاد، صليت في الأقصى. فلنرجع كي نعيش مع الأولاد والأحفاد، مع الجيران والأصدقاء. تتركني وحيدة في البيت، وأنت تتنطّط من مسجد إلى مسجد.

رغم أننا قضينا هنا بضعة أسابيع فقط، فإنني أشعر بأنني كبرت عشر سنين. أكاد أتفرقع من هذه العيشة. أودّ الرجوع إلى بعلبك، وأنت حرّ في البقاء وحدك في عين ماهل.

جدّي وجدّتي ندما، لما رجعا إلى عين ماهل، وتركا أولادهما في الأردن ولبنان؛ عاشا في حزن واكتئاب. لكننا لا نتعلم من دروس الماضي، ما عندنا ولا ذرة إيمان، نُلدغ من الجُحر مِرارًا».

استبد به ضيق عارم، قام من فوره عائدًا نحو البيت، يقلّب الأمر في ذهنه، فتذكّر مقولة مشهورة (حين لا يعجبك المكان الذي تعيش فيه، فارحل، أنت لست شجرة).

اهتدى إلى الحل. توجّه نحو بيت صديقه الشاب، وقال: «(كنيسة الحي لا تشفي).

سأبشّر بأفكاري في عرين البواسل، بلدة ذلك الشيخ الجَسور، الذي لا يخشى في الحق لومة لائم، سأنضم إليه، هي لا تبعد عن عين ماهل أكثر من نصف ساعة».

نصَحَه الشاب: «لا تذهب، العيون ستلاحقك. ستقضي يومًا في البيت، وشهرًا في السجن؛ وهذا لن يحقق لك أي هدف. صدّقني، أفكارك لن تُرضي الشيخ الجَسور، ستجد هناك متطرفين أيضًا».

عاد إلى البيت يجُرّ أذيال الخيبة، تتصارع الافكار في

رأسه.

ضغوط ذاتية، وغيرية، تختزلها كلمة واحدة: اِرحل.

هل عاد من بعلبك، إلى عين ماهل كي يرحل؟

رحيله فشَل، وبقاؤه دون نشر أفكاره فشَل أكبر، وعبَث.

قابَله ابن خاله «شيخ رشيد، كأنني رأيتك من بعيد تُحدّث نفسك؟!»

-«أنت تتوهم يا خال، زيارتك طبيبَ العيون صارت ضرورية».

لم ينم تلك الليلة، فظهر الشيخ الجليل، شديدُ بياض الثياب، شديدُ بياض الشعر أمامه. قال وهو يُحرّك سبّابته في وجهه: «أنت شجرة، لا تستسلم، فكِّر في الخطة ب». ثم اختفى.

أَراحَه هذا الدعم المعنوي، استرخى يغطّ في نوم عميق، فشاهد رؤيا تُبهج النظر: عشرة أقمار في السماء، يتوسّطها بدر شديد الضوء.

أفاق من نومه، وقد اهتدى إلى الخطة «ب» .

الفصل الثامن عشر

لمعت في ذهن رشيد فكرة ثورية. قال لصديقه الشاب: «اختر لي عشرة شبان متعلّمين، مثقفين، تثق بتقواهم، وبتوجّههم السياسي، الموافق لتوجهنا؛ لنكوّن خلية دعوية، تكون مقدمة لتحقيق إنجازات تأتي».

كان الاجتماع الأول في بيت رشيد.

بعد الترحيب بهم، طلب أن يقف كل منهم للتعريف باسمه، وعمله، و مستواه الدراسي.

لاحظ أن المدعو جهاد أقواهم شخصية، وأجرأهم تحدّثًا، وتنظيمًا لأفكاره، عندما ردّ له التحية بأحسن منها، معدّدًا ألقابه وإنجازاته، مؤكّدًا على أنه مفخرة لعين ماهل والوطن.

شكره رشيد، ثم أضاف:

«عزيزي جهاد، لاحظت أنك كررت هذه الكلمة عدة مرات، الوطن، الوطن... الوطن حيث تكون أنت أنت، لا أنت هُم. لا نحن عشنا في الوطن ولا أنتم، كلنا لاجئون، لكن اختلف الملجأ، والحاكم والمُعيل.

هأنتم تحت سيطرتهم منذ ٦٧ عامًا، تعيشون، تأكلون وتشربون، تمشون في الأسواق كما يمشون، لأنكم مسالمون، لا أكثر ولا أقل، الأمر المؤكد أنكم لستم مثلهم أبدًا.

فَرِحون أنتم بالعمل وجمع المال، بالبناء والتكاثر، بليالي الخميس الحمراء، وهم فرحون أيضًا، يعتبرونكم عمالة رخيصة، بِجَرّة قلم يستغنون عنها، ويستوردون عمالة أجنبية أرخص، وأكثر طاعة منكم.

تقولون: الوطن. هل تقصدون فلسطين؟

ما الذي قدمتموه لها، هل قمتم بأية خطوة لتحريرها؛ بل هل تجرؤون على الحديث عنها، مجرد حديث فقط؟ إن لم يزغرد السلاح، فالخراب قادم.

يخططون لطرد العرب من فلسطين، كلِ فلسطين؛ يعملون على إنهاء القضية، وشطبها من المحافل الدولية،

من الجغرافيا، من التاريخ، الذي لن يذكرها إلا على صفحة صفراء، من القطع الصغير».

ثم طلب من كل منهم وضع تصوّر موجز، لخطة يراها الأنسب لتحرير الأرض والمقدسات، ومَنَحهم أسبوعًا لإنجازها.

كان يعلم أن تخصيص بيته للقاءات الدائمة سيَلفت الأنظار؛ لكنه كان محرَجًا من طرح مكان بديل. أدرك (جهاد) ذلك، فقال: «مداومتنا على هذا المكان خطر شديد، ليكن اجتماعنا سِريًّا، على هيئة رحلات شبابية مختلفة الأمكنة، في المنتزهات، في أحراش سرطبة، فالطقس ربيعي يسمح بذلك».

بعد أسبوع، قدّم الشبان خططهم لرشيد، ووعدهم بالإطلاع عليها.

في اليوم التالي، طبطب على كتف جهاد: «أنت أمير المجموعة».

اعترض الباقون: «جهاد أصغرنا سِنًّا، وأقلّنا خبرة، نحن أكثر منه علمًا، وأحقّ بالإمارة».

ردّ رشيد: «لم أختره عشوائيًّا؛ بل درست شخصيته

منذ مدة، وقرأت خطته المنظمة والمبوّبة، بدءًا من وضع الأهداف البعيدة والقريبة، مرورًا بتسلسل خطوات التحرك، وانتهاء بشكل الدولة ونظامها بعد التحرير، وعلاقتها بدول العالم.

مصعب بن عمير كان شابًا صغيرًا، ولكن النبي اختاره لدعوة أهل يثرب؛ ولولاه ما قامت للمسلمين دولة. أعرفتم سبب هزيمتنا منذ مئة عام؟ ما حدث الآن أمامي هو السبب. كلكم تحبّون الزعامة، كيف تُنشأ دولة كلّ شعبها زعماء؟

صحّحتُ الكثير من أفكار خطته، حذفتُ بعضها، وأضفت ما يلي: [قيل، إن الوطن هو هذه الأرض المعجونة برفات الأجداد، وعبق التاريخ. هذا صحيحٌ، إذا كنت تحكمه أنت، لا الأغراب. لكن إذا كنتَ لا تتنفس ألا زفيرهم، فأنت لا تعيش في الوطن، بل في ملجأٍ، كعبدٍ تابع.

بين أن تكون غريبًا في وطنك، أو أن تكون لاجئًا مكروهًا خارجه، عليك أن تتبنّى الخيار الثالث، أن تُهدي أحفادك في أعياد ميلادهم بنادق، بنادق حقيقية] .

هكذا أضحَت الخطة متكاملة. ومهما يكن، فستظل اجتهادًا بشريًّا، قابلاً للأخذ والرد.

قرأ الخطة، وأرسلها إليهم عبر الواتساب، ثم شدّد عليهم: «بعد قراءتها بتمعّن، احفظوها غيبًا، ثم امحوها من الهواتف، كتدبير أمني. إياكم أن تحتفظوا بأية ورقة مكتوبة، لها علاقة باجتماعاتنا. أزيلوا من هواتفكم أية كلمة تتعلق بنا، لا داعي لإنشاء مجموعة واتسأب أو سواها. سنحدد موعد الاجتماع التالي ومكانه، بعد كل لقاء. سأوزع عليكم الآن مَلزمة من ستّ أوراق، تدور حول كيفية كتابة القصة. وإذا تمّ توقيفنا، فعليكم أن تذكروها كدليل إثبات؛ وعليكم أن تذكروا أمام المحقق جملة واحدة لا غير: نحن أصدقاء رشيد، مهتمون بالأدب، نجتمع به كي يعلمنا كيف نكتب القصة؟» .

لم يبق من أمل لديه إلا تثقيف الشبان العشرة، وإعدادهم لتجديد الخطاب الديني، وقيادة النضال. مهمة تبدو مستحيلة، ولكن كل المشاريع العظيمة الناجحة، كانت في البداية مستحيلة.

تكررت اللقاءات خارج المسجد. خطر ببال جهاد أن

يدعو الخلية، إلى إفطار رمضاني في داره. بعد الإفطار جلسوا يشربون الشاي، فسأله جهاد: «مولانا، لقد شرحت لنا طبيعة الصراع، ومُنطلقنا في النضال للمطالبة بأرضنا ككنعانيين عرب، لا كمسلمين فقط. شرحتَ الدين البسيط، ووظيفته في الحياة؛ وأنه يلتقي بجوهره مع جميع الأديان؛ وأن الأديان تطورت ككل شيء في الحياة؛ وأنها فرّقت البشر ولم توحّدهم، لأنها ابتعدت عن الجوهر الواحد، وتَبِعت مصالحها الدنيوية كأحزاب جماهيرية متنافسة.

وعَدتَنا بالحديث عن علاقة الدين بالعلم؛ وعن معنى الخلافة في الأرض؛ وعن الحساب الأخروي وعلاقته بعدل الله، فهل توجزها لنا؟».

-«نعم، شرحت هذا وأكثر، في روايتي المنشورة (شمس قبيل الفجر) ولكن سأوجز الجواب ببساطة:

ما دام الدين من الله، والعلم منه أيضًا (علّم الإنسان ما لم يعلم) فمِن المُحال أن يتعارض العلم والدين؛ والله إذا وضع قانونًا، فإنه يلتزم به ولا يخالفه. السر الأعظم الذي كشفتُه يتوافق فيه العلم والدين بشكل منطقي ومُقنع.

لقد خلَقنا للعبادة، لا بمعنى الصلاة والصوم والحج والتسبيح فقط، بل بمعنى إقامة الخلافة في الأرض، عبر بناء الحياة وتطويرها بالعلم والتكنولوجيا، وعلى أسس إنسانية أخلاقية حسنة .

وأنه سيحاسِب الناس يوم القيامة على العمل فقط (ولتُسألن عما كنتم تعملون) .

لم يخلق الخلق ثم يُفضّل فئة محددة، ليكونوا شعبه المختار، ويهمل الباقين. عادل هو جدًّا، والعقاب عنده على قدر الجريمة، فمحال أن يرمي في جهنم المستعرة مليارات البشر، إلى أبد الآبدين، لأنهم ارتكبوا كبيرة من الكبائر، ولم يتوبوا عنها قبل الموت؛ أو لأنهم لم يهتدوا إلى دينه الحقّ، فالطفل يولد صفحة بيضاء، وأبواه يُهوّدانه أو يُنصّرانه أو يُمجّسانه، ولا أحد يبحث بعد ذلك عن الدين الحق، إلا القلة النادرة جدًا؛ والسبب أن كل دين يعتبر نفسه هو الحق، فلا يبحث معتنقوه في الأديان المخالِفة. فكيف يكون اللّه عادلاً إن عذّب مليارات مليارات المليارات من أصحاب الديانات المتعددة، المخالِفةِ للإسلام مثلا، أو لمذهب من مذاهبه؟

توحيد ـ عبادة ـ استقامة، هذا هو جوهر الأديان المُنجّية، دنيا وآخرة».

صفّق الحاضرون جميعًا لرشيد، وقال جهاد: «طبعًا، سنناقش معك بالتفصيل هذه الأفكار الجديدة، في جلسات قادمة، لأن كل فكرة تحتاج جلسة مطولة، وذِكر الأدلة والمراجع العلمية.

كن حذرًا يا مولانا، لأنك إذا نشَرت أفكارك، فلربما تفقد رأسك».

-«يا حبيبي يا جهاد، نشَرت أفكاري وانتهى الأمر.

اطلبوا صداقتي في الفيسبوك، وهذه صورة بروفايل حسابي. ستجدون مقالاتي وكتبي منشورة إلكترونيًّا، فيها تفصيل وافٍ، مدعّم بالأدلة، مع ذكر المراجع. ثم لماذا أفقد رأسي بسبب أفكار شخصية؟ مَن شاء فليقبلها، ومَن شاء فليرفضها. لماذا لا يُقتل المفكرون إلا في بلادنا؟

وعلامَ تريدني أن أتأسف؟

اسمعوا هذه الحادثة:

أخبرني صديقٌ مقيم في القدس، يتقن العبرية، أنه

تتكّر، واندسّ بين المتدينين، في محاضرة حاشدة. قال المُحاضِر: (وجودُ غير اليهود خطرٌ علينا، أطفالهم سيكبرون، ويحملون السلاح ضدنا، فماذا علينا أن نفعل؟).

أجابه أحد الشبان: (نعتبرهم أهدافًا في حقل رماية).

ضجت القاعة بالقهقهة، والتصفيق، والهتاف، فصار صديقي يدعو الله ألا ينكشف أمره.

ما دمنا مستهدَفين على الدوام أينما كنا، فهل نحن على قيد الحياة، أم على قيد الموت؟

لن أحمل السيف لنشر أفكاري، سأنشرها في كتاب، ولكل امرئ الحق في أن يقتنيه، ويطّلع على ما فيه، أو يمر عليه في المعارض مرور الكرام، فيعاد تخزينه في أقبية المكتبات طعامًا للفئران».

* «حسنًا مولانا، هذه الأفكار عقلانية مقنعة فعلا، تهدف إلى تنقية الدين مما علق به من أساطير، وخلافات، وتناقضات؛ ولكننا لم نسمع منك السر الأعظم الذي كشَفتَه».

-«لن أبوح بالسر الأعظم بأسلوب تلقيني أَكرَهُه،

وأمقتُ من ينتهجه في التعليم؛ بل سأطلب منكم البحث في مواضيع تتعلق بالفيزياء الحديثة. أنتم متعلمون، ولا بد أنكم درستم هذا العلم العظيم، ولو بشكل مبسط.

فيما يلي قائمة بالمواضيع، التي عليكم أن تبحثوا فيها، والتي ترتبط بالسر الأعظم ارتباطًا جوهريًا وثيقًا، على أن نلتقي غدًا، كي أطلعكم على السر.

المواضيع هي: تجربة الشقّ المزدوج/ فيزياء الكَمّ/ الوعي الكمّي/تشابك الوعي الكمّي/الأكوان الموازية. الأوتار الفائقة/ أَبعاد الكون الأحد عشر/ علاقة الوعي بالدماغ وبالروح/ نظرية التطور».

❖ ❖ ❖ ❖

الفصل التاسع عشر

-«قبل البوح بالسرّ الأعظم، لا بد من تمهيد ضروري موجَز:

منذ القِدم، وكل فيلسوف يحاول كشف لغز الكون والله، فيموت قبل ذلك.

إن السر المكنون الذي يعتقد العالِم، أنه اهتدى إلى كشفه، كنظرية تشرح كل شيء، هو السراب بعينه حتى الآن؛ فما إن يكتشف العلم حلا للغز، حتى يَظهر له إشكالٌ جديد يحتاج حلا.

الأديان حاولت ذلك على مستويين:

بالنسبة لأصل الكون، راحت تردد شروحاتٍ رفَضها العلم، الذي قدّم نظريات مقنِعة، مدعّمة بالأدلة والتجربة، كالنسبية العامة، وميكانيكا الكم،

والأكوان الموازية، وآخرها نظرية الأوتار الفائقة، التي جمعَت بين نظريتَي النسبية العامة، وميكانيكا الكمّ.

حجم الوتر الواحد أقل من نواة الذرّة بمئة مليار مليار مرة، ويصعب رصده حاليًا، لعدم توفّر الأجهزة القادرة على ذلك. تثبت هذه النظرية بأن للكون أحد عشر بُعدًا، لا أربعة أبعاد فقط؛ وليس له بداية ولا نهاية؛ فلا فراغ قبل تشَكّله؛ إذ كانت الأوتار الفائقة تملأ هذا الكون، كطاقة متراقصة، متحركة على الدوام؛ ثم نشأت منها الجسيمات المادية التي شَكّلت المجرات. كيف تمّ ذلك؟ اِسأل هاتفك النقّال.

أما نشوء الحياة على الأرض، فقد فسّرَته نظرية التطور، التي أُثبتت علميًّا، وبشكل نهائي عام ٢٠٢٢.

بالنسبة للتعريف بجوهر الإله، تنافرت الأديان واختلفت، وجاء شرحها أخفى من الغموض؛ مع أن الإنجيل والقرآن ذَكَرا إشارة مهمة جدًا، بأن اللّٰه نور؛ ثم توقّفَ رجال الدين عند ذلك، مانعين أتباعهم من البحث والشرح، محتجّين بأنه ليس كمثله شيء، وأنه نور فعلا، ولكن ليس كالنور الذي نعرفه.

اللّٰه وصف لنا جوهره النوراني في سورة النور (اللّٰه نور السموات والأرض) ثم أَتبَع الآية بتشبيهٍ يوضح ذلك النور (مثَل نوره كمشكاة فيها مصباح، المصباح في زجاجة، الزجاجة كأنها كوكب دُرّي، يوقد من شجرة مباركة، زيتونة لا شرقية ولا غربية، يكاد زيتها يضيء، ولو لم تمسسه نار، نور على نور...) ومعلوم بأن التشبيه في علم البلاغة وظيفتُه التوضيح والشرح.

حسنًا، فما دام اللّٰه نورًا، أي طاقة، فلنترك علم الفيزياء يبحث عنه، لأن النور مبحث فيزيائي. هذه هي الأرضية التي انطلقتُ منها لكشف السر الأعظم.

لقد أَثبت العلماء نظرية الوعي الكمي، وتشابُك هذا الوعي الكمي، وقد استفادوا منها عمليًّا في اختراع الكمبيوتر الكَمّي، الموضوعِ حاليًّا في خدمة الذكاء الاصطناعي المذهل.

نظرية تشابك الوعي الكمّي هذه، قد تُذهلنا بوجود قُوةٍ جبارة، هي وَابِلٌ هائل من الجسيمات النورانية الواعية، أي (نور على نور) ليس كمثلها شيء؛ وهي التي تحفظ نسيج الزمكان، الحاضن للمجرات، والكون

بكامله؛ وهي التي تمسك السماوات والأرض أن تزولا؛ هي العقل الأول، الذي فاضت عنه العقول التسعة الأخرى، المكلّفة بمهام محددة، كما تصورّتها الفلسفة.

هذه القوة الواعية هي ال(هُوَ) الذي لا نعرف عنه شيئًا. (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار). وما الكون والمخلوقات إلا تجلّياتٌ وظِلٌ للّه نور السموات والأرض (الم تر إلى ربك كيف مدّ الظل) ولم يقل: كيف مدّ الموجودات. وهذا يثبت أن الموجودات كلها، بما فيها الإنسان، ليست قائمة بذاتها، بل بغيرها، لأن وجودها مُستمَد من الأصل، من اللّه. فالكل يشترك في الأصل. وهذا هو جوهر نظرية وحدة الوجود(الواحدية).

سَمّ هذه القوة النورانية ما شئت، اللّه، يهوه، الرب. وتخيّل جوهرها كما شئت، بشرط ألا تفرض وجهة نظرك على الغير، طالما أن هذه القوة الجبارة لم تُظهِر ذاتها للبشر، الذين لا يدركون إلا المحسوسات.

وهذا لا يمنع أن توجد معها قوى أخرى، كطاقة واعية لامرئية، لها وظائف محددة؛ ربما تكون خيّرة كالملائكة، أو شريرة كالشياطين. وربما توجد

كائنات فضائية غير معروفة الجوهر.

وهكذا تلاقى العلم والدين حول هذه المسائل، التي شغلت المفكرين والفلاسفة ورجال الدين من مئات السنين.

ومَن يعش سيسمع الكثير، والمُثير، مما يتوصل العلم إليه».

* «مهلا أستاذ، هل تتكرم بتوضيح جوهر هذا الإله الفيزيائي، بأسلوب مبسط؛ ما هي صفاته، وما علاقته بالبشر؟».

-«كنت أتمنى أن تتوسعوا في البحث بأنفسكم، ومع ذلك سأشرح ذلك لكم.

❖ ❖ ❖ ❖

الفصل العشرون

-أحبائي: جوهر الإله لن يدركه أحد. وتشبيهه بوابل هائل من الجسيمات الواعية المتشابكة هو محاولة مني؛ قد تكون صحيحة؛ وقد تكون خاطئة، لأنها مبنية على علم الفيزياء، الذي ينفي اليوم ما أكّده بالأمس. ما زلت أعمل عليها لإثباتها بشكل مُقنع، ولكن كخطوط عريضة أقول: «تشابُك الوعي الكمّي يعني.....».

قُرِع الباب بشدة، فأجفل المجتمعون. رفَسه أحد الجنود بِحدّة، موجِّها بندقيته نحوهم: «انبطِحوا أرضًا».

مجموعة من الجنود فتّشت بيوتهم بعد اعتقالهم بدقائق؛ لم تجد إلا مَلازم من وريقات ستّ، عليها عنوان (كيف تكتب قصّة).

فرقة أخرى من الجنود توجّهت إلى بيت رشيد؛ حشَرت زوجته في الزاوية: «هاتي كل ما لدى زوجك من كتب وأوراق، قبل أن نقلب البيت رأسًا على عقب».

سلّمَتهم كل ما طلبوه، ومع ذلك عاثوا في البيت فسادًا.

جلسَت تنتحب بعد أن خرجوا حاملين الكتب والأوراق، لا تدري ما الذي سيحل بها وبزوجها العنيد.

وسيق رشيد والذين اتّبعوه إلى مخفر القشلة في الناصرة.

الوثائق أُرسلت إلى جهة فحص مختصة. وجرى مع رشيد تحقيق أولي سريع، تعلّق بنشاطه الدعوي: «اِسمع رشيد، حين سمحنا لك بزيارة دولتنا، كان ذلك بناء على طلب خالتك المُقعدة، حسب ما وصلني من معلومات. كنا على معرفة تامة بتحركاتك وبما تتحدث به. آراؤك التي تتمحور حول الإسلام، لا دخل لنا بها مطلقاً، طالما أنها لا تمسّ أمننا بسوء؛ ولكن أن تتقافز من مسجد إلى مسجد، ومن منتدى إلى منتدى، تتحدث عن تكذيب التوراة، ونفي قصة العبور؛ وعن تضخيمنا للهولوكوست؛

وعن دعمك لخيار الإرهاب، الذي تسمّيه مقاومة، فهذا كله يُخرجك من بيت خالتك نعمة، ويحشرك في بيت خالتك هنا، في السجن.

ستبقى عندنا ريثما تدرس الجهات المختصة كتبك، وأوراقك، والتسجيلات الصوتية، التي رصَدت كل حرف نطقت به في بلادنا».

أيقن أن الفأس وقعت في الرأس، ولكنه لم يكترث لحاله، فهذا قَدر المصلحين على مرّ التاريخ. عاشوا أحرارًا، والحُرّ لا يموت.

متأكد هو أن الخبر انتشر في البلدة أسرع من البرق؛ وأن رجال عائلته سيَهبّون هبّة رجل واحد إلى المخفر لمعرفة الخبر. ستتلاطم اتصالاتهم بالجهات العليا لمتابعة الموضوع، من أجل معاملته باحترام وتهذيب.

أبو عبدو كان أول الواصلين؛ يعرف رجال الشرطة هناك، فلطالما قصدوا الفرن الذي يديره، وسعدوا بما يُقدّمه إليهم من مُعجّنات عامرة بكرَمه المعهود.

سلّم على الضابط، وقبل أن يفتح فمه قال: «اطمئن أبو عبدو، رشيد بخير. الموضوع سيكون سهلا، لا

يستحق انشغال البال، طالما أنه لا يمس الأمن. حقّقنا معه تحقيقًا أوليًّا سريعًا، وأرسلنا كتبه ومخطوطاته إلى الجهة المختصة. بعد صدور تقريرها، سيكون لكل حادث حديث؛ لا تقلق».

فرح رشيد لرؤية أبي عبدو الذي طمأنه: «حُط إجريك بمَيّة باردة، ليلة وبتمرق، أنا بتابع الموضوع، بكرا الصبح بَكُون عندك مع المحامي».

أمضى رشيد ليلته، في غرفة معزولة، ساهرًا يضرب أخماسًا بأسداس: «ما الذي ستقرره الجهات المختصة، التي صادرت الكتب والأوراق والهاتف؟

موقف عصيب، ولكن (بلاء أخف من بلاء) أحمدُ الله، أنهم لم يعتقلوا زوجتي، وخالتي وأقاربي، وإلا متُّ ندمًا وقهرًا. سأطلب من زوجتي العودة إلى بعلبك. هل ستمر رحلة عودتها على خير؟ لماذا اصطحبتها معي؟ وكيف لا أصطحبها، هل يُعقل أن أعيش وحيدًا هنا، بدون رفيقة الدرب؟

الذي سيحل بي أنا لا يهم؛ فقد فكّرتُ وقدّرت وسُجنت حين قَدّرت. لا يندم المرء على ما يختار. الأهم، ألا

يُمَس تلاميذي العَشَرة بسوء. أصلا كيف كنت سأعيش هنا إن بقيتُ حرًّا طليقًا، هل أبقى بلا عمل، وبلا بيت أمتلكه، كالذي في بعلبك؟ ومن سيُشغّل عجوزًا يبلع سبعة أدوية يوميًّا؟ صحيح، نسيت تناول أدوية المساء. ستحضرها زوجتي غدًا، لا ينقصها حسن التدبير. ولكن، هل ستتذكرها في خضم التوجس والخوف؟

حقّقتُ هدفي في هذه الأسابيع الماضية؛ عانقتُ خالتي وأقاربي. قرأت الفاتحة في مقبرة الأجداد. زرت البلاد زيارة مسلوقةً سَلقًا؛ لكنها مُشبِعة. نوّرتُ عشرة من الشبان، عليهم يُعقد الأمل، غرسْتُهم كالشجر، وعسى أن تفرح الأجيال بالثمر. بشّرتُ بكتابي شفهيًّا، ينقصه كل شيء كي يصبح كتابًا منهجيًّا، موضوعيًّا، محترَم الإخراج والطباعة. استولى الجنود على مخطوطته. هذا لا يهم، فالأفكار في رأسي، ويحفظها تلاميذي. هل يطمح لاجئ مُهجّر إلى أكثر من هذا؟».

عند الصباح، حضر أبو عبدو برفقة صديقه المحامي، وأم محمود، التي بكت بمرارة لرؤية الإجهاد الشديد يرسم قسمات زوجها.

أخبرَته بصوت متهدّج: «الحارس صادَر الأدوية والثياب والأطعمة، متذرّعًا بالقانون، الذي يقضي بفحصها بدقة، قبْل تسليمها إليك».

فقال رشيد في سِرّه: إذًا بدأ مسلسل العذاب.

صمتَت لحظة ثم قالت له: «ليش صار هيك؟».

«لإنو هيك لازم يصير !! مش إنتي مؤمنة إنو كل شيء مُقدّر سلفا؟». قالها رشيد، ثم صافح المحامي، الذي أخبره بضرورة التوقيع على طلب التوكيل، كإجراء احترازي، تحسُّبًا لما قد يتضمنه التحقيق، وتقرير لجنة فحص الوثائق من محاذير.

ثم انفرد به، سأله أسئلة مهمة عن تحركاته، وهدفه من الاجتماعات المتكررة بالشبان.

أعطاه رشيد إجابات مؤكدة، بأن هدفه أدبي، يتعلق بتعليم الشبان فنّ كتابة القصة، بناء على طلبهم، لا أكثر؛ وأنه أبعد ما يكون عن السياسة وزواريبها.

قال لزوجته في حضور أبي عبدو، أن رجوعها إلى لبنان ضروري، حفاظًا على صحتها، فأولادها في بعلبك أحقّ برعايتها، خاصة وأن قضيته قد تطول.

طلب من أبي عبدو توصيلها إلى عمّان، وأوصاها بتغيير جواز سفرها المدموغ بختم دخول الكيان الغاصب.

حاول أبو عبدو ثنيَه عن قراره، مؤكدًا أن القضية بسيطة، ولا تستدعي هذا الحذر والخوف كله، وأن أم محمود أختنا، نضعها في عيوننا؛ لكن الشيخ رشيد أصرّ على طلبه بعناد كبير.

ودّع زوجته بدموع حارة «اطمئني، أنا بين أهلي هنا، كله بأمر الله، أليس كذلك؟ سلّمي على الجميع».

وفود القرية تجمهرت أمام (القشلة). النساء يحملن صنوف الطعام والحلوى والفواكه، والرجال يتحدثون مع الرتب العليا من معارفهم.

خرج الضابط البدوي غاضبًا، خاطَبهم بلسان عربي مبين، بأنه لا داعي لهذه المظاهرة، فرشيد بخير. إذا كانت قضيته لا تمس الأمن فسيخرج بسرعة.

تمّ التحقيق مع كل واحد من الشبان العشرة على انفراد، كانت إجاباتهم متطابقة (نحن أصدقاء رشيد، مهتمون بالأدب، نجتمع به كي يعلمنا كيف نكتب القصة؟) .

صدر الأمر بإخلاء سبيلهم، مع إبقاء ملفاتهم مفتوحة، في انتظار ما سيُظهره التحقيق المتواصل مع رشيد من مستجدات.

خرجوا مبتسمين. علِم رشيد بالخبر، فقفز فرحًا، وتنفّس الصعداء.

قبل أذان المغرب زار أبو عبدو المخفر، وطمأن رشيد بأن زوجته صارت في بيت ابنتها بعمّان.

دمعت عينا رشيد، وهو يحتضن أبا عبدو، شاكرًا فضله. لكنّ داخله كان يتوجس شرًّا.

❖ ❖ ❖ ❖

الفصل الحادي والعشرون

البلاء كالموت يأتي بالجملة، فما إن يموت شخص ما، حتى يحلو المقام لملك الموت، فيحصد أرواح بعض أفراد عائلته.

والجهات الأمنية في الدول الشقيقة والصديقة تؤمن بالآية (وتعاونوا على البر والتقوى...) .

كيف وصلت المعلومات المتعلقة بماضي رشيد وشبابه إلى العدو؟ سؤال ساذج، لأن جوابه معروف.

أما لماذا وصلت المعلومات الآن بالتحديد؟ فسؤال وجيه. جوابه حَدثٌ طازج:

قبل مدة، انفعل رشيد على المنبر واحمرّ وجهه، كما يفعل خطباء الجُمعة، فانزلقت على لسانه بعض المعلومات مباشرة من العقل الباطن، دون أن تمر على مركز

التحكم في الدماغ. قال في معرض شرح (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة...): «إن التعاون أهم بنود الإعداد. وقد ساهم بشكل مباشر في انتصارات المقاومة، حيث تكاتفت جميع القوى، مع دعم حقيقي من الجبهة الداخلية. وكنت شاهدًا على ذلك».

تعرِف الحرامي المتأهب للسرقة من نظرات عيونه، التي تدور بسرعة في الاتجاهات جميعها. وتعرف الجاسوس المندَسّ في المسجد، من طريقة جلوسه غير المألوفة، في آخر الصفوف، كي يَرصُد ولا يُرصَد. يُخرج هاتفه الجوال مرارًا، يكتب ملاحظة، يسجّل مقطعًا من الخطبة، يُصَوِر الخطيب دون استخدام الفلاش.

بعدها يكون الأمر سهلا، وتحضر المعلومات بالسرعة المطلوبة: زَيد يتصل بعُبيد. وعُبيد يعِده بسرعة تقصي المعلومات عن رشيد، من صديقه الموثوق هناك. وصديقُه الموثوق رفيقٌ لمحققٍ هنالك. والمحقق سمع الكثير المُدهش، من السائق أبي عادل، الذي أوصل رشيد وزوجته من بعلبك إلى عمّان (ويا خبر بفلوس، بكرا بتصير بفلوس أكتر). يُفتح الملف المقصود المنتفخ،

وتتسرب المعلومات المُفصّلة، ويَقبض فاعلو الخير مالا وفيرًا، فيَعلق رشيد.

اتصل رئيس مركز القشلة بأبي عبدو: «شَغلة قريبك عويصة، تعال أنت والمحامي».

أطلعَهما الضابط على موجز المعلومة [رشيد انتسب في شبابه، وحتى قارب الستين، إلى عدة تنظيمات للمخربين، بأسماء مستعارة] .

هذا سيطيل فترة اعتقاله، سيتم التحقيق مرارًا معه، ثم سيُحاكم، وربما يُسجن.

أُسقط في يد أبي عبدو، زعلَ على قريبه الذي (جاء يفرح فلم يجد مطرح).

طلب مقابلته: «إمسك أعصابك يا خال، أخبَرَنا الضابط قبل قليل، بأن بقاءك هنا سيمتد، وسيتم التحقيق معك مطولا، بسبب معلومة وصلَتهم».

-«معلومة شو؟ طمّني».

* «سيحكي معك المحامي بشأنها».

* «الموضوع الآن صار معقّدًا، اُصدقني القول: هل انتسبت إلى التنظيمات بأسماء مستعارة؟ جهازهم هنا لا تأتيه

معلومات مغلوطة، ما ستخبرني به سيظل سرًّا بيننا، أريد معرفة الحقيقة، كي أتمكن من تدوير الزوايا، والتلاعب بالكلمات، والمصطلحات، والتواريخ، فأُخرجك من الورطة، مثل الشعرة من العجين». قال المحامي.

-«نعم، حدَث هذا، وأنا أتشرف بما فعلتُ، ولست نادمًا».

* «طيب، هل حملت السلاح وقاتلت في الجنوب، أو سواه، طيلة فترات انتسابك؟».

-«لا، كنت مدرّسًا، ثم عملت إداريًّا، في قِسم اللاسلكي المدني، ثم انتقلت للعمل كمرشد ديني».

* «حسنًا، قُل هذه المعلومات حرفيًّا أثناء التحقيق، لأنها بالتأكيد، وصلَتهم حرفيًّا كما ذكرتَ، وأنا سأتصرف».

حين اقتيد رشيد إلى التحقيق كان مُجهدًا، دلّ على ذلك بطء مشيته، ولهاثه الناجم عن مرض القلب الذي يعانيه:

* «كي لا تطول فترة اعتقالك ومحاكمتك، أنصحك

بـالاعتراف، وقَـول الحقيقـة، فمعلوماتنـا كمـا تعلـم، موثوقة وموثّقة» . قال الضابط .

وراح رشـيد يسـرد عليـه بصـوت متقطـع، تاريخـه النضـالي مـع التنظيمـات، وسـبب تركهـا والانتقـال إلى سواها، وأنه كان مدرّسًا، فإداريًّا، فمرشدًا دينيًّا .

* «طيّـب رشـيد، ألـيس غريبًـا أن تعمـل المسـتحيل لِلَـمّ الشمل، وتترك الخَلَف كي تعيش مع السلَف؟ مُضحك جدًّا، أن تترك الحاضر والمستقبل الذي أنشأته هناك، كي ترتحل إلى الماضي هنا، وتتعلق به!! يا سيدي كان بإمكانـك الإلتقـاء بخالتـك، وأقاربـك، في الأردن أو مصـر أو تركيـا أو مكـة، ثـم تعـود إلى أولادك. أنـت بالتأكيد، لديك أهداف أخرى، أبعَد من هذه الأهداف الإنسانية غير المقنعة» .

-«خـالتي مقعـدة لا تسـتطيع السـفر، ورجـوعي إلى بلـدي هـدف بحـدّ ذاتـه، حتـى بـدون وجـود أقـارب. مـا وصـفتَه بالماضي هو الجذور، وأنا جئت كـي التَحِم بها، فتنمو الشجرة من جديد» .

* «تشبيه أدبي جميل، غير مستغرب من عاشق الكلام

البليغ. ألم تُنشئ خلية إرهابية مكوّنة من عشرة شبان، قبل أسابيع قليلة؟» .

-«أبدًا، هذه ليست خلية إرهابية، هم طلبوا مني كأديب روائي، أن أُعلّمهم كيف تُكتب القصة» .

* «سنتأكد من صحة كلامك، ولكن أنت صعدت منبر الجمعة، ورحت تسرح وتمرح في الحث على المقاومة، والإعداد للنصر والتمكين، مكرّرًا جملة تُطرب المستمعين (نحن الأصليون، وهم عابرون) ولدَي تسجيلات بصوتك تؤكد ذلك، هل تريد أن تسمعها؟».

-«لا داعي لذلك، أنا لم أخرج في خطبي ودروسي عما قاله اللّه ورسوله، هذا هو ديني، ولن أحَرّفه، أو أحاول تأويله؛ لكنني لم أشجّع المصلين على المساس بأمنكم، وإذا كان عندك أي دليل، فأسمعني إياه» .

* «حسنًا، سأكتفي اليوم بهذا القدر، وستخضع لجلسات تحقيق تمتد، بحسب ما يردنا من معلومات طازجة، بدأَتْ تتوالد».

ربَّت المحامي على كتف رشيد: «اطمئن، فطالما أنك لم تحمل السلاح، فالأمر في صالحك، وأنا أُعجبك في

الترافع أمام القضاة، قلّعت أسناني مع قضايا مشابهة».

«أية نعمة أعظم من نعمة الانترنت». قالها أبو عبدو، وهو يُطمئِن أولاد رشيد في لبنان، والمَهجر، على وضع أبيهم؛ كان يعِدهم بأنها شِدّة وتزول، وأن المحامي سيحقق براءته قريبًا، وهو بصحة جيدة. ثم راح يدعو اللّه أن يسامحه على الكذب.

أم محمود مثل جميع النساء، إذا قالت سأزور أهلي يومين ثلاثة، فعليك أن تضرب العدد باثنين أو ثلاثة. كان الاتفاق أن تطير إلى بيروت، لكنها وجدَت عذرًا مُقنعًا، كي تبقى عند أهلها وابنتها، أطول فترة ممكنة.

قالت: «مستحيل أروح ع لبنان، وأترك رشيد محبوس بالبلاد».

اختلف الوضع الآن. المحقق ليس في عجلة من أمره. أمْن البلد عنده، أهم بألف مرة، من معاناة ثعلب كالحرباء، اسمه رشيد.

إطالةُ مدة توقيفه ضروريّة، والمبررُ جاهز، دراسة وثائقه السمينة، والثمينة . ونَقْلُه إلى سجن (الجَلَمة) البعيد منطقيٌ جدًا، لمنع الزيارات عنه بتاتًا. فما انكشف

من تاريخه النضالي في لبنان، يشير إلى نيّته في تشكيل خلية إرهابية هنا.

صدر الأمر بنقله إليه، فحاول أبو عبدو التدخّل؛ نَصحه الضابط البدوي: «تهمته ليست مزحة، بل قنبلة؛ قد تطالك شظاياها، فابتعد عن القضية».

انتفض أبو عبدو، وصرخ: «لن أبتعد، سأعمل المستحيل لمساعدته. س...» .

قاطَعَه الضابط: «وفّر عليك عنترياتك، فالعنتريات لم تقتل ذبابة، القرار صدر بنقله. دع المحامي يتصرّف هناك».

لم يكن رشيد خِرّيح سجون؛ كتَب عنها فقط.

الآن يُعاني ويلات ما كَتَب.

كانت حُجرة جانبية، لا تتعدى مساحتها أربعة أمتار مربعة. تأنف الكلاب من رائحتها، فضْلا عن الإقامة فيها. على الأرض فرشة إسفنج رقيقة، وبطانية سوداء خشنة، تنبعث منهما رائحة عَرَق سجين سابق.

أُسند ظهره إلى جدار بارد، مشبَع برائحة الرطوبة والعفن، فانتفض مقرِّرًا: الوقوف أسلم.

دَفع الحارس إليه صحن طعام من تحت عقب الباب؛ فجلس يتذكر قصةً كَتبَها، حول موقوف سياسي، سُجن في زنزانة انفرادية:

((في الأيام الأولى، كان يزعق، شاتمًا، لاعنًا الزعيم والحراس والحياة؛ وبعدها اعتاد على العذاب.

وِحدة قاتلة، تمنّى معها أن يكلّمه الحارس؛ أن يشتمه بأقذع الشتائم؛ أن يشاهد يده، بدل أن يدفع له بصحن الطعام الرديء العفن، من تحت الباب، مُرفقًا بسكون رهيب، يعادل الموت.

كان يطرب لطقطقة حبات السبحة في يده، وهي تلعب دور المؤنس لوحدته.

يغمره الفرح كلما سمع قلقَلَة المفاتيح، التي يحملها الحارس، يتوقع منه أن يفتح الباب؛ لكنه يمضي.

صادَق الصرصور، الذي كان يتعمد الدخول والخروج، مِحرّكا قرنَي استشعاره، كأنه يتباهى: أنا أكثر منك حرية، وأهنأ عيشًا !!

صار يحزن لغيابه، ويفرح لحضوره.

بلغ به اليأس مَبلغه، فراح يدق جدار الزنزانة

بقبضته، ويصرخ: «أخرِجُوني من هنا، سأنتحر. سأنتحر. أقولها، وسأفعل» .

لم يعلم أن السكون المعزول، لا ينقل الصوت. وإنْ سَمِعه الحارس، فلسوف يقهقه قائلا: انتحارك يريحنا من مسؤولية اغتيالك)) .

حرّك رشيد سبابته يمنة ويسرة، هازًّا رأسه: «أنا لن اتصرّف كبطل قصتي أبدًا. الشيخ الجليل نَصحني ذات مرة: [كُن مختلفًا] وهكذا سأكون.

سبحان اللّه !! هل كَتبتُ قبل أربعين عامًا ما أعانيه الآن؟!».

مضى أسبوع، وهو على هذا الحال من الوحدة.

هو يعلم علم اليقين، أن القلق والاكتئاب، ونفاد الصبر، سيُضاعف الأوجاع، ويورث الجنون؛ لذا قرر الالتزام ببرنامج يومي بالغ الدقة، حركات سويدية، صلاة، تَفكُّر، يوغا، تنظيم أفكار كتابه ذهنيًا.

هو الذي كان يؤكد في محاضراته (العبد يَخلق عبوديته وإن كان طليقًا، والحر يصنع حريته مهما كانت القيود. بفكره وروحه يسمو فوق الجراح، يُحلّق

في معارج النور، فينسى الظلام والأغلال). وقد نجح في تطبيق نظريَّته. زاره الشيخ الجليل، فزاده نورًا على نور.

قبّل جبينه وهنّأه: «اليومَ أكملتَ المهمة، يا رشيدُ، فطوبى لك» .

لم يعد يشعر بمرور الأيام، لكنه أحسّ بتدهور صحته. لازَمَه شعور دائم بالإعياء؛ كان يعزو ذلك إلى ظروف الاعتقال المُهينة، ورداءة الطعام والماء الملوث.

قبل موعد المحاكمة بيوم، زارَه المحامي، وكرر على مسمعه ما يتوجّب عليه قوله أمام القاضي، كخطوط عريضة، ورؤوس أقلام : «أنت أستاذنا شيخ رشيد، اختصِر في الكلام، لا تُحوّل أجوبتك إلى خطبة جمعة، الجواب على قدر السؤال» .

❖ ❖ ❖ ❖

الفصل الثاني و العشرون

جلس رشيد، هازًا رِجله خلف القضبان. ابتسامتُه المصطنعة رسَمَتها عظام وجهه. فحزن أقاربه حزنًا شديدًا .

القاضي: «كي لا نطيل الجلسة في تكرار الكلام، حضرة المدعي العام، لا داعي لمرافعتك، وقد اعترف المتهم بما نُسب إليه. سأسأله مباشرة، وإذا أراد المحامي الترافع فيما بعد، فله ذلك.

وإذا أردت أن تُعلّق على ما سمعت، فهذا من حقّك:

شيخ رشيد، أمامي تحقيق، اعترفتَ فيه بانتسابك لعدة تنظيمات مخرّبين في لبنان، هل تؤكد لنا اعترافك هذا؟» .

-حضرة القاضي: أجل أؤكد ذلك، ولكن كنت أتوقع أن تسألني، عن الدوافع التي جعلَتني أنتسب إلى تلك

التنظيمات.

* القاضي: حسنًا ما هو الدافع؟

-أنا تدربت على حمل السلاح، مثل جميع اللاجئين في لبنان، لكنني لم أطلق منه طلقة واحدة، حتى في عرس. احتفظتُ في بيتي بكلاشينكوف، لأن كل القاطنين في لبنان مسلحون، فكيف أدافع عن عائلتي بدون سلاح؟ كانت مهماتي مع التنظيمات تعليمية، ثم إدارية، ثم كواعظ ديني، أُركّز على انتهاج الأخلاق الحسنة، وأدعو إلى السلام والتراحم بين البشر، وإلى قبول الآخر المختلِف. لستُ على شاكلة رجال الدين المتعصبين؛ فأنا علماني، أنادي بفصل الدين عن السياسة، ومنع رجال الدين من تقلُّد أي منصب سياسي، حتى ولو كمختار قرية، لأنه سيراعي جماعته، ويمنحها حقوقًا تفوق حقوق المخالفين له.

أما مواعظي الدينية، فكلها منشورة في حساب الفيسبوك خاصتي، وقد أعطيت الرابط للمحقق، ولا أدري إن كان قد تصفّحه، وعرف كل شيء عن أفكاري.

هناك عامل اجتماعي، اقتصادي، يُضاف إلى ما سبق ذكره، ولا يُنكره أحد.

فحين يحشرك والدك في معهد ديني، كي تصبح رجل دين يتفاخر به، وهو يعلم أنك لن تجد عملا بعد التخرج، حتى ولو نلت الدكتوراه، فماذا تفعل؟

حين ترى الشبان اللبنانيين حولك يعملون، يبنون البيوت، يتزوجون، وينجبون، وأنت تتقدم في السنّ بلا هدف، ولا يُسمح لك بمزاولة سبعين مهنة أساسية؛ تمد يدك إلى أبيك كالمتسول لتأخذ ليرات قليلة، كمصروف تخجل من قِلّته أمام رفاقك في المقهى، فماذا تفعل؟ هذا كل ما عندي» .

ضجت قاعة المحكمة بالتصفيق، ثم طلب المدعي العام الكلام: «سيدي القاضي، للإنصاف أقول، أنني تتبّعت منشورات المتهم، ووجدته منفتحًا جدًا، ويدعو إلى العلمانية في جو من السلام والأمن. وهو صادق في كل كلمة قالها، رغم أنه في العديد من قصصه، ومقالاته كان يحث على القتال لاحتلال أرضنا من جديد. مَجّد العمليات الانتحارية، لدرجة أنه ذكَر في إحدى قصصه

المنشورة جملة خطيرة مُقلِقة (واحدٌ منا سيبقى هاهنا.. أنا). كما أنه أكد في دروسه وخطبه جملة ساذجة، لا مكان لها اليوم إلا في سلّة القمامة (نحن الأصليون، وهم عابرون). وقد شكا منه المصلون، بأنه عمِل على زعزعة شعورهم الديني، وهذه شكوى ساذجة، في غير محلها. لأن الفكر يُناقش بالفكر؛ وهذه مسائل ثانوية، لا تمسّ أمن دولتنا بأي خطر» .

توجّه القاضي نحو المحامِي: «هل تريد الترافع؟» .

* «حضرة القاضي، الشيخ رشيد كفّى ووفّى، قَطَع قَولَ كلِ خطيب، ولكن أرجو مراعاة سِنّه وعجزه؛ وهذا تقرير من طبيب القلب، يوضح حالته المَرضية، وعدد الأدوية التي يتناولها يوميًّا، وأنتم ترون مرَضه بأعينكم، هُزال، شحوب، إعياء ظاهر». قال المحامي.

ضرب القاضي بالمطرقة على الطاولة: «رُفعت الجلسة. الحُكم بعد المداولة؛ ويمكنكم الانتظار قليلا لسماعه».

أعاد القاضي افتتاح الجلسة، وبدأ بقراءة الحُكم: «حيث أن المتهم لم يحمل السلاح ضد جنودنا، ولم يُهدِد أمن الدولة في كل ما قام به في حياته. وحيث أن الظروف

المعيشية قادته للانتساب إلى تنظيمات المخربين في لبنان. وحيث أنه كاتبٌ لا يدعو إلى التعصب، بل إلى العلمانية والتسامح والسلام، بغضّ النظر عن دعوته إلى الجهاد في قصصه المنشورة قديمًا، والتي هي مجرد كلام ويظل الكلام كلامًا. وتقديرًا من هيئة المحكمة لظروفه الصحية، فقد قررت إخلاء سبيله؛ ولكن بما أن لقاءاته السرّية تكررت مع مجموعة شبان مُلتحين، فهذا أثار الشكوك حول نيّته في إنشاء خلية إرهابية. التحقيق لم يتوصل إلى أي إثبات على ذلك، ولكن على سبيل الاحتياط، فإن أقصى ما يمكننا تقديمه للمتهم، أن يُحرم من الجنسية والهوية، وأن يعود من حيث أتى، خلال يومين من تاريخه» .

خرج رشيد بعد إتمام إجراءات إخلاء السبيل، فيما يشبه العراضة والزفّة، قال له المحامي: «يمكننا الآن، تقديم طلب استئناف الحكم، إن شئت، وسنربح الدعوى. يحتاج الأمر تقديم التِماس للمحكمة، نثبت فيه عدم تورطك في إنشاء خلية إرهابية» .

-«يكفي يا أستاذ. لقد حقّقت مرادي. كنت قد قررت

المغادرة، قبل إلقاء القبض عليّ؛ ولكن فِعل الخونة كان أَسرع. أنتم تعوّدتم رؤية خِلقَتهم، والتعامل معهم. أنا لن ... » .

❖ ❖ ❖ ❖

الفصل الثالث والعشرون

طلب رشيد التوجّه إلى البيت، كي يجهّز حقيبة السفر. أقاربه رفضوا مغادرته الفورية، عليه أن يرتاح من تداعيات السجن على صحّته؛ لكنه قرر بثقة، أنه يفضّل أن ينجو بجلده .

انفرد بأبي عبدو، أكد له بأنه قضى الفترة كلها في زنزانة انفرادية، لا يمكن تصوّر رداءتها، وأنه لم يذق لقمة، مما جلبه الأقارب من طعام .

انخرط أبو عبدو في نوبة غضب هستيرية: «لماذا لم تُطلع المحامي على هذه الجريمة، لماذا؟» .

-«هددوني بالتعذيب إن فعَلتُ» .

أرغى أبو عبدو وأزبَد، مقررًّا بأنه سيقلب الدنيا على رؤوسهم. وسيرفع دعوى قضائية بهذا الخصوص .

طبطب رشيد على كتفه، مخاطبًا إياه بهدوء: «أنصحك بألا تفعل، لا أمان لهم. حصَل ما حصل وصار ماضيًا، أنتم الحلقة الأضعف هاهنا» .

هبّت القرية لوداعه، وراح يعتذر عن قبول الهدايا؛ ولكن خالته كانت تزْوِره بطرف عينها: «عيب» .

قال مما يحفظ: (نلتقي بعد قليل، بعد عام، بعد عامين وجيل) .

انطلق به أبو عبدو بسيارةٍ مؤخّرتُها أخفض من مقدمتها، تَئِن تحت ثقل تنكات الزيت والزيتون، الزعتر والصابون، علب بسكوت وراحة، عسل جردي، فواكه مجففة، وألعاب للأحفاد .

هذه المرة لم ينظر إلى الخلف، ركّز نظره إلى الأمام؛ بينما راح أبو عبدو يُطيّب خاطره، بأن القرية كلها سعِدت بلقائه، وأن ما حصل كان تجربة تُضاف إلى تجارب الكاتب، مستدلا بأن تولستوي تعمّد القيام بجُنحة صغيرة، كي يدخل السجن، ويعايش حياة المساجين من أجل أن يصفها في رواياته .

أبو عبدو ينتقل من موضوع إلى موضوع، ورشيد يهزّ

رأسه فقط. أدرك عندها أن رشيد يسايره، وربما لم يسمع حرفًا مما قال، فقرر الصمت .

رشيد كان في عالم آخر، لم يَر شيئًا مما تختزنه الطريق من مناظر .

هو عادة يتوتّر، ويصاب بالإسهال قبل السفر بيومين، فكيف وهو بحالة كهذه؟!

مرّ شريط ذكريات الرحلة سريعًا بباله، من بدئها وحتى هذه اللحظة. هل سينجح في الحصول على جواز سفر مؤقت، بعد أن خَتمَت سلطات العدو جوازه الأساس بالتأشيرة والأختام؟

ما الذي ينتظره عند نقاط الحدود، وهو يشحن هذه الهدايا؟ من المؤكد أنه سيدفع رسومًا جمركية أكثر من قيمتها، فيندم على قبولها .

نقاط جمركية متعددة، ستزيده إنهاكًا على إنهاك، وهو يُخرج الهدايا من صندوق السيارة، ويعيدها إليه. هل سيكتشفون لعبته المتمثلة بتغيير جواز السفر؟

كل هذا كوم، وما سيَحل به في لبنان كومٌ آخر .

تنتظره نظرية مؤامرة، تصيبه بستين داهية؛ ما هي

نتائجها؟

لماذا تساهَل القاضي معه بالحُكم إلى هذا الحدّ؟ المدّعي العام قرر أنه كان يشجّع في كتاباته على العمليات التي سماها انتحارية، ونادى باقتلاع اليهود غير العرب من فلسطين، وكرر مقولات خطيرة جدًّا أمام المصلين؛ وكان واعظًا ومرشدًا مع أحد التنظيمات؛ فكيف يتهاون القاضي، واصفًا ذلك كله بأنه مجرد كلام، ويبقى الكلام كلامًا؟

قال المدّعي العام، إن كتابات رشيد تدعو إلى السلام وقبول الآخر؛ مع أنه قرأ قصصه، ورواياته التي تصف أقبية التعذيب، في معتقل الخيام، وتشرح كيف تمت الإبادة الجماعية في دير ياسين والطنطورة وصبرا وشاتيلا!! هذه وحدها كافية ليُعَلقوا رشيد من خصيتيه.

كيف صدّقوا بهذه السذاجة، أن الخلية السرية التي أنشأها، كانت لتعليم الكتابة الأدبية؟

منذ متى صاروا يُقدّرون الظروف الصحية للأسرى والمعتقلين؟

لكن في المقابل، ألا تبدو هذه الأسئلة مجرد أوهام،

وأحلام يقظة؟ فقد كان مسجونًا عندهم، ولو أرادوا به شرًا، لما مَنَعهم مانع.

المهم الآن، أنه عائد إلى عائلته، وأصدقائه، وهذا إنجاز بحَد ذاته.

كل معاناته مبررة. ليس هناك شرٌ مُطلق، ولا خير مطلق. الخير والشر وجهان لعملة واحدة اسمها الحياة. يكفي أنه حقق حلمه بزيارة أرضه، وأرض أجداده؛ الْتَحم بالجذور، بأقارِبه، وصلّى وزار.

يكفي أنه كشف السر الأعظم، كما بشّره الشيخ الجليل؛ ويكفي عين ماهل فخرًا أن السر انكشف فيها.

كل ما عاناه، وسيعانيه، سيصبح ذكريات، حين يُفلح في طبع كتابه (السر الأعظم) إن بقي في العمر بقية.

أول ما سيفعله، في عمّان بعد عناق الأحبّة، استصدار جواز سفر مؤقت من السفارة اللبنانية.

سيحتاج بضعة أيام، ستكون فرصة لدخول مشفى متخصص بأمراض القلب؛ وبعد العودة إلى بعلبك سيكون له شأن آخر، سلوك مختلف، مختلف كثيرًا.

هزّه أبوعبدو بقوة: «هيييه وصلنا الحدود، والله يا

خال، لو بعثتك بسيارة أجرة لكان أحسن، طول الطريق وأنت ساكت» .

استدار حين سمع صوت بلاده: «أنتَ لم ترحل، لأنك في القلب» .

لوّح لها بكلتا يديه، ثم سجد سجدة الوداع .

سارت الإجراءات بسرعة، لأن القاعدة الأمنية تقرر (يَسِّر المُغادِر ولا تُعسِّره) . وصار رشيد في عمّان .

عانقه الأقارب عناق الحب الغامر، وحزنوا لمرضه الذي غيّر قسماته .

ودّعه أبو عبدو، وقال: «لطالما سمعتك تقول (اللي خُلقَ عَلقَ). وكلنا خُلقنا يا خال. لا تحزن لأنك ستعود لاجئًا. كلنا لاجئون» .

أُدخل المشفى، وأجريت له الفحوصات المخبرية، والصور مختلفة الأنواع .

انتحى الطبيب المعالج بابنته وزوجته: «التحاليل أظهرت ارتفاعًا في السكر والأملاح والكرياتينين عنده، وهذا سبب الغثيان والوهن. سنعالج الالتهاب الرئوي الحاد أولاً، هذا أمره بسيط. العلاج الأساس سيتركز بعد ذلك

على تخفيض مستويات السكر والكرياتينين. قوة عضلة القلب مقبولة بالنسبة لمريض مُسنّ، ولن يحتاج إلى تركيب بطارية. ليس هناك ما يدعو إلى الهلع بتاتًا. يحتاج إلى البقاء في المشفى مدة كافية، للعلاج والتغذية المدروسة بدقة، وسيخرج مثل الحصان. الممرضات معجبات بتفاؤله وتعليقاته الكوميدية، وهذا عامل مهم جدًّا في تماثله للشفاء سريعًا .

أبناؤه كانوا على تواصل دائم معه، يمازحهم، يضحك لحركات أحفاده الصغار، فيتحسّن مزاجه، وتزداد رغبته في الطعام، رغم استمرار موجة الغثيان والإعياء، التي تخفّ ثم تشتدّ .

بعد أسبوع من العلاج طمأنهم الطبيب، بأن مغادرته المشفى صارت وشيكة جدًّا، بعد انتظام أموره. لكنه انتكس فجأة و بدأ يشعر بازدياد الغثيان والوهن. أُعطيَ الأدوية اللازمة فلم يتحسن. وصارت الحالة تتكرر .

أعادوا الفحوص المخبريّة والصُّور، فوجدوها جيدة .

صار الوهن يزداد، مترافقًا مع الدوخة. ظن الطبيب أن ذلك سببه الأدوية الكثيرة التي يتناولها، ورقاده الطويل

في السرير؛ ولكن عندما بدأ شَعرُ ساقَيه في التساقط، سارع الطبيب إلى إجراء فحوصات السرطان وكانت النتائج سلبية .

تساقُط الشعر امتد تدريجيًّا إلى أعلى الجسم، مع استمرار الغثيان والدوخة، فاستدعى الطبيب ثلة من أشهر الأطباء المعالجين لمثل هذا المرض، أكدوا جميعًا إنها حالة نادرة، والعلاج يكون لتداعياتها فقط، لأن السبب الرئيسي غير معروف .

حضر أبناؤه المهاجرون، اقترحوا على الطبيب نقله إلى الخارج للعلاج، فصارَحهم: «تشاوَرنا مع أشهر طبيب مختص في باريس، عالَج حالة مماثلة لأحد القادة العرب عام ٢٠٠٤، وأكد لنا أن ما نقوم به من علاج للتداعيات هو الحل الوحيد، فلا داعي لنقله، ودفع التكاليف الباهظة دون جدوى، خاصة وأنه يستجيب للعلاج ببطء شديد. أخبَرَني والدكم أنه كان في زيارة إلى فلسطين، وبما حدث له بالتفصيل، وأن الغثيان والإعياء بدأ يصيبه قبل المحاكمة بأيام .

عمِلنا كل ما في وسعنا، والباقي بيد الله. الموضوع

الأهمّ، أن والدكم ردد أمامي مرارًا، أنه نادم جدًّا، على عدم التفرغ لجمع كتابه (السر الأعظم).

كيلا تخسر البشرية هذا الكنز المعرفي الثمين، اقترحتُ عليه بأن يُسجِّل أفكار الكتاب صوتيًا».

تكفّل ابنه بالمهمة، فوجده يخلط شعبان برمضان، كلمة من الشرق وأخرى من الغرب، أفكار مبعثرة، لا ترابط بينها، فأمره الطبيب بالتوقف.

أشرقت الشمس، مُعلنة بدء نهار آخر. ابتسم رشيد لها.

طلب رؤية أفراد عائلته. عانقهم قائلا: «أشعر بتحسُّن كبير».

راح يأكل بشهية، وكأنه لم يكن مريضًا. فرِحوا لسعادته.

استبقَى ابنه الأكبر: «أطمح لإتمام الكتاب تنظيمًا وتنقيحًا، حالما أستعيد قواي. وإن لم، فلربما يفعل ذلك أحد تلاميذي العَشَرة».

التَفتَ يمينًا، فرأى عائلته وأقاربه من خلف الزجاج، يبتسمون له. التَفت يسارًا فرأى الشيخ شديد بياض

الثياب، شديد بياض الشعر، يلوّح له بيده، هو ذاك الشيخ الجليل، الذي ظهَر له مرارًا. ردّ له التحية بكلتا يديه، فتعجّب الحاضرون جميعًا، إذ لم يروا أحدًا جهة اليسار .

ربّت على كتف ابنه، قائلا بصوت متقطّع: «البنات أمانة في عنقك، كن أنتَ، عِش صالحًا حُرًّا، وأحسِن التدبير. اُترك بصمتك الإنسانية على جدار الزمن، كتابًا يفيد، ذِكرًا حسنًا، عملا خيّرًا يبقى، وابذُر الجَمال. أقسى جملة تُقال للإنسان: «عُد من حيث أتيت» .